

سامر أنور الشمالي

سيكون في جديد الزمان

سلسلة القصة (2) 2014

سيكون في جديد

الزمان

البريد الالكتروني: E-mail: aru@net.sy

موقع اتحاد الكتاب العرب على شبكة الإنترنت
http://www.awu.sy

الإخراج الفني : وفاء الساطي
تصميم الغلاف : فاطمة الجابي

سامر أنور الشمالي

سيكون في جديد الزمان

قصص قصيرة

منشورات اتحاد الكتاب العرب
دمشق

سلسلة القصص (2)
2014



إلى المقتول الذي أبى أن يكونَ القاتِل.

المؤلف



الرصاص الفارغ

- قف وإلا أطلقت النار.

صوت صرخ من خلف بقايا جدار متقوض.

وقف الطفل ورفع يديه الصغيرتين عالياً.

بعد هنيهة من سكون مريب خرج الرجل المسلح من مكمنه، وحدق بدهشة بالطفل النحيل ذي الثياب الرثة! ثم صاح به بصوت مبحوح:

- اذهب إلى منزلك.
- لم يعد لدينا منزل.

قال الطفل بأعلى صوته ليسمعه الرجل بوضوح.

قفز الرجل فوق الجدار، وسار بخطوات واسعة بين

الأنقاض، وعندما حاذى الطفل سأله بجفاء:

- أين كان منزلك؟.

أشار الطفل بيده إلى مكان مازال يتصاعد منه الدخان الأسود دون أن يخطر في ذهنه ما يدور في رأس الرجل الذي علق سلاحه على كتفه وقال بلا مبالاة:

- حسناً.. اذهب والعب في مكان آخر.

- أنا لا ألعب.. أجمع الرصاص الفارغ وأبيعه لأشتري الخبز لإخوتي الصغار.

- أين والدك؟.

- قتل الأسبوع الماضي.

- هل كان مقاتلاً؟.

- كلا.. كان عاملاً في مصنع الأحذية.

فكر الرجل بأنه ربما هو من قتل والد الطفل، ورغم ذلك رغب في مساعدته، فوضع سلاحه جانباً، وأخذ يبحث مع الطفل عن عبوات الرصاص المعدنية بين الركام، ويسترق النظر بإعجاب إلى الطفل المنهمك في عمله بجدية.

وتجاذب الرجل والطفل الحديث، ثم تبادلا المزاح، وضحكا معاً، وعندما قال الطفل:

- عندما أكبر سأحمل السلاح وأقاتل من قتل أبي.

تجهم وجه الرجل غير الحليق، ثم جلس على كومة من أحجار الأبنية المتداعية، وأشعل لفافة تبغ من النوع الرخيص، ثم قال:

- فكر في أن ينتهي القتال..

وأردف مستنكراً:

- هل أنت سعيد بما يجري الآن؟!.

حدق الطفل في السماء الرمادية، وقال بأسف:

- لم أعد أذهب إلى المدرسة منذ شهور.

- يجب أن ينتهي القتال ويعود جميع الأطفال إلى المدارس.

قال الرجل، ثم ابتسم ابتسامة حزينة، وأضاف بود:

- جمعنا ما يكفي.. اذهب واشتر الخبز لإخوتك.. الشمس بدأت بالمغيب.

- أجل..

أجاب الطفل، ثم أردف برجاء:

- ستكون هنا غداً؟.

- ربما.. لماذا تسأل؟.

لم يرغب الرجل في أن يقول له إنه سيكون رابضاً مكانه إذا لم يُقتل. أجاب الطفل:

- سآتي غداً.. يوجد الكثير من الرصاص الفارغ هنا.

- حسناً.. إذا لم أغادر المكان فسوف أساعدك، وإذا لم ترني هنا فابحث في مكان آمن، هذه المنطقة خطرة.

- ولكن فيها الكثير من الرصاص الفارغ..

قال الطفل ضاحكاً، وأردف وهو يضع الكيس الثقيل على كتفه:

- سأحدث أمي عنك.

- ما اسمك؟.

- شادي.

- أسرع إلى أهلك يا شادي، لاشك في أنهم ينتظرونك بقلق.

قال الرجل وهو يربت على كتف شادي.

- إلى اللقاء يا عم.

قال شادي، وأخذ يقفز فوق الأنقاض، وما كاد يبتعد مسافة قصيرة حتى سقطت على مقربه منه قذيفة، فدوى صوت انفجارها بقوة، وتصاعد الغبار.

هرع الرجل إلى حيث الانفجار، وجد شادي مطروحاً على الأرض وقد أصابته شظايا قاتلة مزقت جسده الغض، وأهدرت دمه على الأرض التي تناثر عليها الكثير من الرصاص الفارغ.

* * *

- أبي.. أبي..

صوت الصغير نبه الأب من ذكرياته التي لا تكف عن مداهمته من وقت لآخر.

- ماذا تريد يا شادي؟.

سأل الأب ولده، فقال الابن وهو يشير بيده إلى ساحة كبيرة فيها الأراجيح:

- أريد اللعب بالأرجوحة.

أمسك الوالد بيد ولده، وسار بقدم واحدة، واستعاض عن فقدان القدم الأخرى بالعكاز، وكان يفكر في أنه كان يقف في المكان نفسه الذي سقطت فيه القذيفة منذ أكثر من عشر سنوات وأودت بحياة طفل اسمه شادي.

رحلة غير منتهية

انطلقت الحافلة مع بزوغ الفجر، ودارت عجلة القيادة بين يدي السائق، كما دارت العجلات على إسفلت الطريق الطويل.

أجرؤهم ـ وليس أجملهم صوتاً- افتتح الرحلة بالغناء، فأخذ الركاب يرددون خلفه المقطع الأخير من أغنيته، وهم يصفقون بحماسة، فقد كان بينهم اتفاق غير معلن على إظهار السعادة، والتمتع بها صراحة قدر المستطاع، ونسيان ما خلفوه وراءهم من أحلام كبيرة، ومشاكل غير قابلة للحل، وأحباء لا يفرح المرء دونهم.

بعدما تعبوا من الغناء والتصفيق، ومن الضحك أيضاً، أخرجوا ما بحوزتهم من طعام وشراب، وأخذوا يمضغون الطعام بشهية، ويرتشفون الشراب بلذة.

استرخى كل منهم على مقعده بصمت، بعدما ملوا من الثرثرة لمجرد التسلية واللهو، وقد أشاحوا بوجوههم إلى النوافذ وهم يتأملون كثبان الرمال التي تنسحب أمام أبصارهم برتابة باعثة على النعاس، ثم ناموا وهم يحلمون بما ينتظرهم من مفاجآت سارة يتوقعون حدوثها الوشيك، وكيف سيتحدثون عنها للأصدقاء والأقارب إلى آخر يوم في حياتهم.

***

أيقظهم صراخ السائق مع قدوم المساء:

- انزلوا بسرعة.

حدقت العيون الناعسة مستفهمة، فأردف السائق بصوت خافت، وكأنه يعتذر عن صراخه غير المبرر منذ قليل:

- سأبدل العجلة.

خرجوا من الحافلة على مضض وهم يتثاءبون، ويظهرون استياءهم. ولكن بعدما أخذوا يتأملون خط

الأفق الأرجواني أعجبهم المنظر، وشعروا ببهجة منعشة، وقد دخل في صدورهم هواء نقي البرودة.

* * *

خيم الليل بصرامة، وغرقت الصحراء في ظلام دامس. وحاصر السواد الركاب من كل جانب، فارتفعت نظراتهم من النوافذ إلى رحابة السماء حيث تتلألأ النجوم حول قمر يرسل نوراً أبيض نادراً ما يرسم ظلالاً في رحابة انبساط الصحراء، وهذا نبههم إلى أنهم نادراً ما يرون النجوم في سماء المدينة التي تحجبها الأبنية المرتفعة، والغبار، والأنوار المبهرة.

- نبدو كذرة رمل صغيرة في دوامة إعصار هائج.

قال أحدهم، وصمت مكتفياً بما عبر به عن فكرة داهمته فلم يستطع الاحتفاظ بها لنفسه.

شعروا بالخيبة، فقد راودهم إحساس حاد بضآلة وجودهم، رغم كل آمال الانتصارات التي ظنوا أنهم سيحققونها في مطلع شبابهم.

قطع الصمت المشبع بالركود صوت الرجل الجالس عند الباب:

- أيها السائق.. أغلق الباب.

اعترض الرجل الجالس خلفه:

- الهواء منعش. هل تنوي خنقنا ونحن وسط الصحراء.

فأعاد الرجل القول محذراً:

- مُدَّ رأسك من النافذة واستنشق ما شئت من الهواء المنعش، ولكن لا بد من إغلاق الباب، فقد يهاجمنا قطيع من الوحوش المفترسة.

أغلق السائق الباب متّقياً نذير الشر، وتبعه إغلاق بعض النوافذ من الركاب الذين داهمهم الخوف على حين غرة، فاحتاطوا للأمر، واكتفوا بترك فتحة صغيرة لنسمات الهواء العليلة.

- لقد عكرت مزاجنا.

قال أحدهم معترضاً وهو يهز رأسه، وأيده الجالس قربه:

- ثمة أناس لا يسرهم سعادة الآخرين.

نظر - الرجل الذي اقترح إغلاق الباب- بحقد إلى الخلف، متحيناً الفرصة المناسبة للانقضاض على خصميه. وانتبه الجالس قربه للأمر، فقال ليخفف من وطأة التوتر، قبل أن ينشب خلاف لا تحمد عقباه:

- ألم نتأخر أكثر مما ينبغي؟.

أجابه السائق، وهو يحدق في طريق ابتلعه الظلام:

- لا تكن عجولاً.

ثم ساد الصمت من جديد، وكأن برودة الصحراء خففت حتى من الرغبة المتقدة في الكلام.

وما لبث أن غرق الجميع في النوم، وكأنهم يهربون من وحشة الظلام التي تثير المخاوف الكامنة في النفس، وربما ليلتقوا سريعاً بالصبح المنتظر حيث تنتظرهم المغامرات التي يأملون أن تكون هي السعادة ذاتها.

* * *

مع انبلاج نور الفجر استيقظ أحد الركاب فرأى بقية الركاب نياماً، والحافلة متوقفة في الطريق، فصرخ كي ينفث عما في نفسه من إحباط مبكر:

- أيها السائق.. لو لم تنم لوصلنا إلى غايتنا.

لم يرد السائق عليه، فأخذ يشتمه بصوت عال، حتى استيقظ كل من في الحافلة.

اقترب أحدهم من السائق، وهزه بعنف من كتفه، ولكنه لم يتحرك.

راكب آخر هرع إلى السائق وتناول يده، ثم قال بأسف:

- جسده بارد.. لقد مضت ساعات على وفاته.

استيقظ الجميع على خبر حزين لا ينتظرونه، وتداعت عبارات متعاطفة مع السائق الميت، ثم فرض الواقع نفسه بقسوة:

- ماذا نفعل بالجثة؟.

- ندفنه في الرمل.

- يجب أخذه إلى ذويه.

بعد طول جدل، غطوا جثة السائق، ووضعوها فوق الحافلة.

***

ظل السائق الميت محور الحديث إلى أن تساءل أحدهم وهو ينظر إلى نقطة يتلاشى فيها الطريق مع خط الأفق:

- من سيقود الحافلة؟.

تطوع أكثر من شخص للقيادة، ودخلوا في جدل حاد حول ترتيب الأدوار، ولكن سرعان ما برد الحماس حين قال رجل نحيل بصوت مبحوح:

- ليست المشكلة في من سيقود الحافلة، بل في من يعرف الطريق.

تبادلوا النظرات بحيرة، وقد خيم عليهم الجزع، ثم تتالت الاقتراحات باحثة عن أمل قريب:

- نواصل السير إلى الأمام.

علق أحدهم ساخراً:

- وإذا كان السائق قد استدار بالحافلة قبل وفاته.

رد آخر باستهجان:

- رغم أنه احتمال مستبعد فإننا سنعود من حيث أتينا.

- وبذلك نكون قد خرجنا من ورطتنا.

قال آخر بخيبة مؤكداً اقتراح رفيقه.

ولكن الرجل الواقف أمامهما قال بسخرية وهو يهز رأسه الأصلع:

- الأمر بسيط ولا يحتاج إلى التعقيد، لنسر عكس جهة شروق الشمس كما كنا نسير. وسوف نصل إلى غايتنا في نهاية المطاف.

* * *

اتفق الركاب على تبديل السائق كل ثلاث ساعات، وأن يكون برفقة السائق مساعد ينبهه ويراقب الطريق.

* * *

ما إن سارت الحافلة لعدة أميال حتى توقفت، وتصاعدت الاستفسارات التي تنوس بين الحيرة والخشية من كارثة جديدة:

- لماذا توقفت الحافلة؟.

- ما العطل هذه المرة؟

- هل سنصل إلى نهاية الطريق حقاً؟.

قال مساعد السائق:

- الحافلة على مفترق طرق.

قال أحدهم ببساطة:

- سيروا على أي طريق وكفى.

نظر إليه الجميع بغضب، حتى إنّ الجالس خلفه أراد أن يضربه لولا تدخل المرأة الجالسة بمحاذاته.

قال مساعد السائق وهو يغادر مقعده:

- لنناقش الأمر بجدية وهدوء.

ثم قفز إلى الأرض، فأسرع الركاب بالنزول خلفه، وتجمعوا حول السائق المساعد الذي جلس على صخرة كبيرة قرب مفترق الطرق دون أن يكف عن الثرثرة.

قال رجل طويل وهو يقف على أطراف أصابعه:

- قد يكون ثمة طريق طويل، وآخر قصير.

- إن كان كلامك صحيحاً، فكيف سنعرف ذلك؟.

تساءل صوت ساخر، فقال صوت خشن بجدية:

- لابد من اختيار الطريق المناسب، وعدم الاستسلام للمصادفة العمياء.

- أحسنت أيها الذكي.

عقب صوت نسائي بسخرية، فارتفع صوت الضحك، وتداخلت الأصوات بجلبة، فهناك من يريد السير على التفرع الأيسر للطريق، ومنهم من اختار الجانب الأيمن. وحدة الصراع لم تمنع فتاة بدينة من إبداء تعليق طريف:

- لو كان ثمة طريق في الوسط لسرنا عليه وانتهت المشكلة.

ضحك عدد محدود بصوت عال، واكتفى قسم آخر بالابتسام، وتجاهل أكثرهم الأمر وكأن شيئاً لم يكن.

وبعدما تعب الجميع من الصراخ والمحاججة اتفق أكثرهم على إجراء القرعة وترك الأمر للمصادفة العمياء.

* * *

انطلقت الحافلة، وبدأت الوساوس تخمد مع رتابة الطريق، إلى أن توقفت مرة أخرى بعد مسافة ليست بالقصيرة. فصاح مساعد السائق قبل أن يسأله الركاب عن سبب الوقوف المفاجئ.

- لقد انتهى الطريق.

خرجت أصوات الضحك من مقاعد الركاب، فقد ظن البعض أنه يمازحهم للوهلة الأولى. بينما قفز آخرون من مكانهم بحبور، فقد خيل إليهم أنهم وصلوا إلى مبتغاهم.

وقف رجل يرتدي نظارات طبية، وقال بطريقة مسرحية:

- أيها السادة.. كيف ينتهي الطريق؟!

ارتفع صوت الضحك مجدداً، وزاد صخب الركاب. ولكن سرعان ما تأكد للجميع أن الأمر حقيقة واقعة وليس هناك مجال للمزاح.

ترجل الركاب من الحافلة وقد خيم عليهم القلق مجدداً.

قال الرجل البدين وهو يغرس يديه في الرمل:

- الطريق لم ينته.. ولكنه مغطى بالرمل.

وقال صاحب السترة الزرقاء وهو يشير إلى الطريق الرملي لعدة أمتار، ثم بدأ الحفر بيديه:

- قد يكون كلامك صحيحاً لأمتار قليلة، ولكن بعدها قد تكون نهاية الطريق أمراً واقعاً.

الرجل الأصلع قال وهو يركل بقدمه الرمل فيتناثر أمامه:

- على أية حال لا بد من إزالة الرمل لنتابع الرحلة.

اعترض ذو السترة الزرقاء قائلاً:

- إذا انتهى الطريق يكون كل ما بذلناه من جهد في إزالة الرمل قد ذهب عبثاً.

سكت الرجل البدين، وصمت الجميع بعدما شملتهم الحيرة، إلى أن قال رجل يشعل لفافة تبغ:

- الأفضل أن نعود من حيث أتينا.

ونتيجة الإحباط أيده أكثر من شخص، إلى أن صرخ رجل قصير وهو يطوح بيديه عالياً:

- بهذه السهولة نضيع من أيدينا هدف الرحلة الذي حلمنا به لسنوات؟!.

أردف الرجل الذي أشعل لفافة تبغ وهو ينظر إلى الركاب باحثاً عن مؤيد له:

- أفضل من أن نضيع في الصحراء.

أكد الكثير من الركاب هذا الرأي الحازم، ولكن لم يتفق الجميع على ذلك، لاسيما أن الرجل الأصلع شتت هذه الفكرة عندما قال:

- ما رأيكم بالعودة والمسير في الطريق الآخر.

عندئذ ارتفع اللغط من جديد. إلى أن قال الرجل النحيل وهو يسند ظهره على الحافلة التي أخذت تفقد بريقها:

- لنؤجل الخلاف حتى نصل أولا إلى مفترق الطرق.

القول الأخير لم يطمئن الجميع، فقد أحسوا أنه ينذر بكارثة ما، ومع ذلك رضخوا للاقتراح لأنه أكثر واقعية من سواه، فعاد كل منهم إلى مكانه، ثم انطلقت الحافلة في طريق العودة.

***

توقفت الحافلة مرة أخرى، وتداخلت الأسئلة مستفسرة عما حدث.

قال من كان دوره في قيادة الحافلة:

- عطل طارئ.

نزل بعض الركاب، ثم اقترب رجل يكشف عن ذراعين قويتين من محرك السيارة، وقال بعدما فحصه بإمعان:

- الخلل في المحرك.

خاطبه الرجل الذي يرتدي نظارات طبية بنفاد صبر:

- أصلحه.. ماذا تنتظر؟!.

رد عليه بشماتة:

- احتاج إلى أدوات للعمل.

بحثوا في الحافلة بدقة، ولكنهم لم يجدوا الأدوات المناسبة.

وتداعت الأصوات التي اختلطت بين اليأس والرجاء:

- أصلحها كيفما اتفق.

- المهم أن تسير وكفى.

صمت السائق، إلى أن انتهت اقتراحاتهم، فقال وهو يحدق إلى الجميع بحزم:

- احتاج إلى مساعدة.

تحلق المتطوعون حوله، وبسكاكين وملاعق الطعام، استطاعوا بالكاد إصلاح المحرك.

قال مساعد السائق:

- يمكن للحافلة أن تسير الآن.

فانبسطت الأسارير، وانتشوا بالأمل من جديد. وأردف السائق المساعد كيلا يخدعهم:

- ولكن أخشى من تكرر العطل لهذا يجب أن نسير ببطء.

تبادل الركاب النظرات بخيبة، ثم قال رجل عجوز وهو يحك بأصابعه المعروقة شعره الأبيض:

- ليس لدينا خيار آخر.

ودارت العجلات المرهقة ببطء هذه المرة.

* * *

بعد عشرات الأمتار توقفوا، لقد كانوا يخشون من عطل آخر، ولكن المفاجأة كانت أكثر إحباطاً:

- لقد نفد الوقود.

صاح السائق وكأنه يزيح بذلك حملاً ثقيلاً عن صدره. وأردفت امرأة تقف بجواره بمرارة أكبر:

- الطعام يوشك على النفاد أيضاً.

قال الذي يرتدي الجينز:

- ليس أمامنا سوى الانتظار، علنا نلتقي بسيارة عابرة.

رد أحدهم ساخراً من غباء المتكلم:

- إنه طريق مهجور، فلم نلتق سيارة واحدة طوال الرحلة.

قالت امرأة في مقتبل العمر، وهي تمسح دموعها:

- ماذا نفعل؟!.

- نسير على أقدامنا إذ ليس لدينا مجال لإصلاح الحافلة.

قال ذلك أكثر الركاب لياقة بدنية، فنظر إليه الرجل البدين بغيظ، ثم قال:

- الطريق طويل.. وسنموت من الجوع والتعب إذا لم تفترسنا الوحوش الكاسرة.

- ما العمل؟.

ردد أكثر من صوت بحيرة، وهم يأملون إجابة تشعرهم ببعض الأمل.

* * *

لم يتفقوا على رأي واحد. وجفت حلوقهم من كثرة الكلام والصراخ دون جدوى. ثم تهالكت أجسادهم العطشى الجائعة على المقاعد المتعرقة من الأجساد اللاهثة الباحثة عن ظل في هجير شمس الصحراء اللاهبة.

* * *

تدافع الركاب بخوف وهم يدخلون الحافلة بسرعة، وأسرعوا في إغلاق النوافذ والأبواب بإحكام، وهم ينظرون بهلع إلى سرب من الطيور الجارحة التي

أخـــذت تـــدنو مـــنهم بوقاحـــة دون أن تأبـــه لـــصفيرهم، وشتائمهم، والأشياء التي يقذفونها بها.

أخـذت الطيـور الـسوداء تـضرب الهـواء بقـوة، وهـي تحـوم حـول الحافلـة الـتي اتـسعت عيـون ركابهـا ذعـراً، وهـي تحدق بخوف، ثم حطت على سـطح الحافلـة لتنهش بمناقيرها الحادة جثة السائق.

الحلم الأول.. الحلم الأخير

لم يكن ثمة شيء غريب، أو غير متوقع، فكل شيء يدعو للطمأنينة، والهدوء، والراحة، وتلك هي السعادة عينها بحسب رأيه.

ولكن عكّر بركة مشاعره الراكدة حجر ألقي فجأة من جهة ما، حين باغته سؤال يبدو بريئاً كسكين ذي نصل حاد في يد طفل صغير يلهو:

- فيم حلمت البارحة؟.

لم يحر جواباً، بل قال ببساطة، وهو يفتح عينيه ليرى البحر الذي لا يمل سماع صوت أمواجه التي لم تتوقف مذ كانت الأرض:

- لم أحلم بشيء.

كانت تتوقع سماع حلم ما، وربما أطول مما تكون عليه الأحلام عادة، ولم تشك في أنها ستكون محوره الأبهى، ولو كان ذاك الحلم مختلقاً، ومع ذلك فهذا يعني لها أن يكون حلماً صادقاً بطريقة ما.

ولأنه لم يفعل، أعادت السؤال مرة ثانية، متجاوزة خيبتها المريرة كنبات الصبار الذي يخرج من بين شقوق الأرض الجافة وهو يحافظ على لونه الأخضر وأشواكه الحادة. وكان صوتها خافتاً، ربما لأنها كانت ترنو إلى الشمس التي تنطفئ ببطء لا يخلو من قسوة، ليستهل المساء قدومه بجرح أديم السماء ليخضب أطراف عباءة الأفق الأسود ببعض دماء الزمن المهدور عبثاً:

- حسناً.. ما هو آخر حلم حلمت به؟.

كان الظلام قد شمل كل شيء، فالنجوم صغيرة جداً في ظلمة لا حدود لها، أما القمر فضائع بين غيوم رمادية سميكة كمعطف عتيق تعبث به رياح الشتاء الباردة. حتى إنه عندما نظر إليها لم ير غير ظلال تتقاسم ملامح وجهها الذي يتناثر حوله شعرها الأسود

بفوضى الأمواج العابرة، ولكنه عرف أنها هي بقربه دون سواها من نساء العالم، لعل رائحتها كانت الأقرب إلى ذاكرته آنذاك.

أجاب معترفاً، كمجرم لا يشعر بتأنيب الضمير، حتى وهو يصرح بأمنيته الأخيرة على منصة المشنقة:

- بصراحة.. أنا لا أحلم.

مع الكلمة الأخيرة، اكتشف بمحض المصادفة تلك الحقيقة لأول مرة في حياته!.

ولكن المفاجأة لم تجرفه كطوفان من نار في سهب من العشب اليابس إلا بعدما قالت بحزن شفاف تكسر كزجاج نافذة قديمة:

- لا أصدق أنّ هناك إنساناً لا يحلم!.

عندئذ تأكد بسهولة لم يعهدها في نفسه من قبل أن كل ما افتخر واعتز به طوال عمره ليس له أدنى قيمة بلا أحلام، لأن الأحلام أجمل وأثمن شيء في الدنيا. كما أصبح لديه قناعة ثابتة في أن الإنسان بلا أحلام إنسان غير مكتمل، بل إنسان ناقص بطريقة غير محتملة.

(2)

شعر بغبائه المفرط لأنه لم يشعر بمرضه الذي لازمه عمره كله دون أن يدري بذلك، وزاد من حدة بؤسه خشية عدم البرء من تلك العلة الماكرة التي لا تستثمر النوم أبداً، فأسرع بالسعي إلى الشفاء المرجو، أملاً في ألا ينداح طوفان اليقظة بقوة، فيخلع من الجذور نباتات الرؤيا الذابلة من شدة الظمأ.

* * *

استلقى على سرير المعاينة، وهو يسمع صوت طرقات قلبه، كأنه يستأذنه للخروج من صدره، لأنه لم يعد ثمة مبرر لبقائه في جوفه الذي لا تبدد ظلامه الدامس بَوارق الأحلام الساطعة. ثم سرد بإيجاز مشوش معاناته الطويلة التي عرفها منذ مدة غير بعيدة.

بعدما فرغ من كلامه، سأله الطبيب النفسي بحياد لا مبرر له:

- لماذا تريد أن تحلم؟.

قال وهو يعود رغماً عنه لعادة البكاء التي يعرفها جيداً كل الأطفال في العالم:

- أريد أن أعيش حيوات أخرى في حياتي هذه.

قال الطبيب، وهو يحاول تخمين إجابته دون جدوى:

- كيف يكون ذلك؟!.

قال بلهفة، وهو يمسح دموعه المالحة كرذاذ بحر داهمته عاصفة عاتية لا تجيد المرح:

- بالأحلام.. فكل حلم هو حياة أخرى.. بطريقة ما.

نظر إليه الطبيب بإعجاب لاتساع مخيلته، ثم قال بثقة مفرطة:

- مادام خيالك خصباً، فالعلاج أسهل مما قد تتخيل.

لم يفطن إلى لعبة الطبيب بالمفردات والتشابيه، فلم يكن يعنيه هذا، لهذا صاح بلهفة، وهو منشغل بعالمه الحميمي على مرأى من إنسان يراقبه بإرادته:

- كيف؟.

طلب الطبيب إليه أن يتكلم بهدوء كيلا يصل صوته إلى غرفة الانتظار، ثم قال بصوت منخفض وهو يقترب من إحدى أذنيه الكبيرتين:

- سنبدأ من الصفر، ككل شيء نجهله ونريد تعلمه للمرة الأولى.

تساءل مستغرباً، وهو يهوي في هوة السؤال:

- لم أفهم ما ترمي إليه؟!.

قال الطبيب، وهو يفكر بكتابة بحث عن هذه الحالة التي وجدها ظاهرة فريدة من نوعها:

- سوف تتدرب على الأحلام.. خطوة خطوة.

سأله بحيرة لا حدود لدوائرها المنفلشة:

- ما هي الخطوة الأولى؟.

قال الطبيب، وقد اتسعت ابتسامته العريضة التي تكشف عن أسنانه الاصطناعية:

- ستحاول أن تحلم بأنك طفل يركض.

تساءل مستفسرا بجزع:

- هل يجري أحد خلفه ليلحق به الأذى؟.

قال الطبيب بصوت هامس:

- بل هو الذي يركض برغبته كي يمسك بالفراشة الطائرة.

ابتسم بهدوء، وقال بمرح يتوارى بعيداً:

- أجل.. الفراشات لا تؤذي أي كائن.

(3)

بعد مدة طويلة، ظنها سنوات من التدريب الشاق قدم الحلم الموعود.

حلم بأنه طفل صغير يركض حافياً على عشب أخضر خلف فراشة زاهية الألوان. وعلى الرغم من أنه كان صغير السن، لم يشعر بالإعياء والتعب حين بلغ قمة جبل شاهق، تستريح الغيوم على قمته، قبل أن تغادره تاركة خلفها ثلجاً نظيفاً لا تلوثه قذارة الأحذية العابرة. ولكنه أحس ببرودة قدميه الصغيرتين، وبرغم ذلك لم يتراجع عن قصده، فقد أخذ يقفز بإصرار حتى نجح في القبض على الفراشة التي صارت ترتجف كشعلة نار ساخنة بين أنامله الصغيرة المحمرة من شدة الصقيع.

كـان يريـد العـودة مـن حيـث أتـى، ولكـن قدمـه الطرية البـاردة انزلقت على الجليـد الأملس، فسقط في اتساع هوة فارغة. وعلى الرغم مـن ذلـك لم يفتح أصـابعه المرتجفة، بل شـد كفـه بقسوة ليسحق أجنحـة الفراشـة المرهفة قبل أن يرتطم بقاع الوادي السحيق.

الشر يجتاح عالمنا

-1 -

اجتمع أشرار أربعة في خمارة دون موعد سابق، وسرعان ما تعارفوا، واتفقوا على القيام بأعمال شريرة في بلدهم، تبهر حتى كبار الأشرار في العالم، علهم ينالون بذلك ما يسعون إليه منذ زمن بعيد.

* * *

دخل الأشرار إلى موقف الحافلات، ثم صعد كل منهم حافلة كغيرهم من الركاب، ولكن قبل انطلاق الحافلات نزلوا بعدما وضع كل واحد منهم تحت المقعد الذي كان يجلس عليه قنبلة موقوتة.

بعدما انطلقت الحافلات، اتصل الأشرار من هاتف عمومي في الشارع مع صحيفة المدينة، ليعلنوا أن الحافلات الأربع ستنفجر في وقت واحد، فعصابة الأشرار الأربعة تشعر بالكثير من الملل والضجر.

في صباح اليوم التالي، نشر على الصفحة الأولى من تلك الصحيفة، خبر تفجير الحافلات الأربع، وخبر الاتصال الهاتفي من جماعة تطلق على نفسها عصابة الأشرار الأربعة.

عدّ الأشرار هذا اليوم عيد ميلادهم الحقيقي، فتبادلوا أنخاب الخمر باعتزاز وهم سعداء بإنجازهم، وأخذوا يأكلون اللحم المشوي بشهية ضارية.

* * *

اتفق الأشرار الأربعة على تنفيذ عمل أكثر قسوة كيلا يفقدوا سطوة حضورهم الطاغي. فذهبوا إلى المشفى الخيري الذي يتكفل بمعالجة الفقراء في المدينة.

في قسم الإسعاف تظاهر أحدهم بالمرض، واستغل زميله الأمر ووضع قنبلة موقوتة تحت سرير المعاينة. ثم دخلوا قسم الأمراض القلبية بحجة زيارة مريض، وكان

في القسم أكثر من عشرين سريراً يستلقي عليها المرضى، إضافة إلى عشرات الكراسي التي يجلس عليها عوّاد المرضى. واستغل أحد الأشرار انشغال الناس، ووضع قنبلة موقوتة تحت أحد أسرة المرضى. ثم ذهب الأشرار إلى غرفة الأطباء، وسألوا عن طبيب ما، ثم وضعوا خلسة قنبلة موقوتة خلف الباب. ثم ذهبوا إلى صيدلية المشفى، ووضعوا دون أن يلحظهم الصيدلاني قنبلة موقوتة في خزانة الأدوية.

قبل أن يغادروا المشفى، اتصلوا من هاتف المشفى بإذاعة أخبار المدينة ليتبنوا العملية.

* * *

قرر الأشرار الأربعة أن يقوموا بعمل مريع وأكثر فظاعة، فوضعوا أربع قنابل تنفجر آليا إذا فُتحت الصناديق الملونة التي وضعت فيها، ثم توجهوا إلى روضة المستقبل السعيد، وقالوا لإدارة الروضة إنّ في هذه الصناديق هدايا للأطفال من متبرع كريم لا يريد الكشف عن اسمه، وهو يرغب في أن يفتح الصغار الصناديق بأنفسهم كي يفاجئهم بالهدايا، فالأطفال يحبون المفاجآت أكثر من الهدايا ذاتها.

ثم ذهب الأشرار الأربعة إلى أقرب هاتف عمومي بعد سماعهم دوي الانفجارات، واتصلوا بقناة الأخبار التلفزيونية، ليعلنوا أنهم من قام بتفجير روضة المستقبل السعيد.

-2 -

تم إلقاء القبض على عصابة الأشرار الأربعة في ظروف غامضة، حتى إن الإشاعات راجت بأن العصابة سلمت نفسها مقابل شروط معينة.

* * *

في المحكمة لم يبد الندم أو الأسف على وجوه أفراد عصابة الأشرار الأربعة- كما توقع الناس- فلقد ظهروا غير مبالين بالأمر، بل كانوا يسخرون من كل من حولهم، ابتداء من الحراس، مروراً بالقضاة، وانتهاء بالصحفيين.

عندما سألهم كبير القضاة:

- أتعترفون بجرائمكم؟.

قال الأول:

- نحن لم نرتكب جريمة واحدة.

وقال الثاني:

- أنتم تظلموننا وهذا ليس عدلاً.

وقال الثالث:

- قمنا بأعمال لصالح البلد.

وقال الرابع:

- انتظرنا أن نكرَّم على ما قمنا به.

ضجت قاعة المحكمة الكبيرة بالصفير، والشتائم، والصياح، والصراخ:

- أعدموهم.

- احكموا عليهم بالأعمال الشاقة مدى الحياة.

- أحرقوهم وهم أحياء.

- عذبوهم حتى الموت.

قرع القاضي الطاولة بمطرقته، وأمر الجميع بالتزام الهدوء، وإلا فسوف يخرجهم من القاعة. ثم سأل أفراد العصابة عن مبرراتهم:

قال الأول:

- تفجير المكتبات أمر يدعو إلى الفخر، فلا يأتي من الكتب غير الثورات التي تزهق حياة آلاف الأبرياء دون مبرر.

وقال الثاني:

- عندما فجرنا المقبرة أثبتنا لأصحابها أن أمواتهم لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم لهذا لا يجب العودة إليهم أو زيارة قبورهم، ولا طلب البركة منهم.

وقال الثالث:

- بتفجيرنا المركز العلمي الحديث جنبنا البشرية اختراعات ستجلب معها الكثير من الفساد والانحلال الأخلاقي، ونحن بغنى عن هذه البدع الدخيلة.

وقال الرابع:

- تفجير المعبد يؤكد أن السماء لا تأبه لأمر المؤمنين، لهذا يجب الكف عن بناء المعابد.

ضجت قاعة المحكمة من جديد بالصفير، والشتائم، والصراخ، دون أن يكون لضربات مطرقة القاضي التأثير المطلوب هذه المرة. لذلك أمر القاضي الشرطة بإخلاء قاعة المحكمة ممن ليس لهم علاقة مباشرة بالقضية، ولكن الحضور رفضوا الانصياع للأمر، فاستعملت الشرطة الهراوات لطردهم بالقوة، وهذا أسفر عن إصابات- بعضها بليغة- وعلى الرغم من ذلك لم يأبه الكثير من الناس لهذا الأمر.

-3 -

بعـد المداولـة بـين القاضـي ومستـشاريه، صـدر الحكم بأن يغرم الأشرار بثمن ما خربوه، قبل إطلاق سراحهم، لأنهم لم يقصدوا الإساءة إلى المصالح العليا للبلد.

الدهـشة مـن الحكـم الغريـب أذهلـت النـاس! وقسمتهم بين مؤيد للمحكمة التي لا تخطئ لأنها أكثر علماً بقوانين البلاد من المواطنين، ومعارض صامت لا يجرؤ على الكلام، لأن كل من يعترض على قرارات المحكمة ينال عقوبة شديدة.

* * *

دفع أفراد العصابة الأربعة المبلغ المطلوب، فأطلق سراحهم سريعاً.

قيل إنهم دفعوا الأموال مما سرقوه.

وقيل إنها أموال من دول أجنبية.

وقيل إنها من أموال تجار يؤيدون القتل لأسباب شخصية.

وقيل إن محامي العصابة جمع التبرعات من مناصريهم.

وقيل إنهم لم يدفعوا شيئاً، وقد تم إطلاق سراحهم لعلاقاتهم الوطيدة مع أشخاص ذوي نفوذ كبير.

-4 -

خرج الأشرار من السجن وهم يخططون للقيام بأعمال شريرة حقاً، ولكن بطريقة جديدة، أكثر خبثاً، وأشد مكراً.

فهم يعتقدون أن كل ما فعلوه ليس سوى مزاح بريء، وتدريبات أولية على شر قادم لا مفر منه مهما طال الزمن!!!.

إنها تخاف الظلام

(1)

على الرغم من الإحساس الغامض بالسواد الذي داهمه مذ فتح عينيه لنور يوم جديد، أصر على الترنم بأغنيته المفضلة، محاولاً جهده أن يبدو في قمة سعادته.

لقد كان يشعر بأن ثمة شيئاً غريباً يغلّ نبضات قلبه في طبقة كتيمة من ظلام دامس، برغم سطوع نور الشمس المحايد الذي ينعكس على المرآة التي تعكس وجهه الشاحب.

انتشله من شروده ألم طفيف معهود على بشرة الوجه، فحدق في المرآة بعينيه الحائرتين، فرأى بقعة من

الدم الأحمر تختلط ببياض معجون الحلاقة لتشكل لوناً وردياً، يشبه وردة بنفسج صغيرة تحتضر بهدوء في واد ملأه الثلج البارد منذ قليل.

* * *

لم تكن والدته تخمن أن الكآبة قد تمر في ذهنه صباح اليوم الذي انتظره بفارغ الصبر منذ سنوات، فشعرت بشفقة مضاعفة تجاه ابنها الذي سيروعه الخبر الحزين، فهمست لزوجها:

- لا تخبره الآن..

ثم أردفت وهي تمنع نفسها من البكاء لكيلا يراها ولدها تبكي:

- انتظر قليلاً.. حتى يكمل حلاقة ذقنه.

قال الأب بلهجة حازمة لا تقبل الجدل، وهو يلتقط تباعاً بين أنامله المرتجفة حبات المسبحة باعتياد لا ينتهي:

- لعله إذا أكمل الحلاقة لن يشعر بمزيد من الخذلان.

الـشيء الغـامض ذاتـه، جعلـه يلتفـت إلى أبويــه، ليراهمـا يقفـان بالبـاب بـلا حـراك وهمـا يتحـدثان بـصوت خافت خشية أن يسمعهما:

ســألهما بــصوت مرتجــف، وهــو يتوقــع كـارثــة وشيكة:

- ماذا حدث؟.

نطقها وكأنـه قد نـدم على الـسؤال لكيلا يـسمع جواباً يخشاه.

أجابه والده باقتضاب، لأنه لا يستطيع غير ذلك:

- وهي تخرج من معرض الألبسة..

لم يـصمت لأنـه نـسي أن يـذكر اسمهـا، فلـم يكـن داع لذلك، بـل صـمت لأنـه أخـذ نفـساً عميقـاً قبـل أن يتم جملته:

- صدمتها سيارة.

فـسأل عندئـذ مـرة أخـرى، وقـد عـرف أن الفـرح المتوقع لم يعد له ثمة وجود:

- ماذا حدث لها؟.

فنطق والده بالكلمة البغيضة باقتضاب:

- ماتت.

ما عاد يجد ضرورة لسؤال آخر، فصمت. فيما سيطر البكاء على أمه بصوت مسموع، فنهرها الأب، فاختبأت عن عيني ابنها في الحجرة المجاورة، فتبعها زوجها قائلاً وهو يمسح دمعة ساخنة عن خده الذي حفر الزمن تجاعيده عليه:

- يجب ألا تبكي أمامه.

فقالت والدته لمجرد البوح:

- أنتَ لم تخبره بطريقة مقبولة.. لقد فاجأته دون تمهيد مناسب.

(2)

عاد يكمل حلاقة ذقنه بهدوئه المعهود. ثم رش الكولونيا كعادته على ذقنه الناعمة، ففاحت الرائحة الطيبة التي ذكرته بقول مازح لها بعدما قبلته في يوم مضى:

- رائحة ذقنك شهية، ولكن طعمها حاذق.

لبس ثيابه الجديدة التي اختارتها له مساء أمس، وخرج من المنزل بصمت.

* * *

ذهب إلى الشارع الذي يقع فيه بائع الحلويات الذي طالما أهداها الحلويات من عنده. ثم وقف أمام الدكان الكبير، كأن شيئاً لم يقع منذ ساعات قليلة.

دخل المتجر فرحب به البائع قائلاً:

- أعرف طلبكَ.. تريد كاتو بالحليب.

وسرعان ما ناوله صندوقاً من الورق المقوى المغلف بورق ملون، فنقده ثمنه. ثم عرج على بائع الورد، واشترى باقة من الورد الأبيض. ثم تابع طريقه كما كان يفعل في الأيام السابقة.

* * *

كان دخوله إلى منزلها حليق الذقن بكامل أناقته، وبيده هدية، وباقة ورد، أمراً مستغرباً وسط المشيعين.

ظن أخوها أنه لم يسمع خبر وفاتها، فاقترب منه هامساً باضطراب والعيون تتابعه بخشية:

- ألم يخبروك بأنها.. ماتت؟!.

لم يكترث لقوله، بل عقب مؤكداً دون أن تبدو عليه الصدمة المتوقعة.

- يجب أن أراها.

إحدى قريباتها وجدت أن وجود الهدية بيده أمر غير لائق في هذه المناسبة، فاقتربت منه تريد أخذها، فمنعها:

- اتركيها.. إنها تحب أن تفتح الهدايا بنفسها.

عندئذ لم يجرؤ أحد على منعه من دخول حجرتها، حيث كانت مسجاة على سريرها، وحولها مجموعة من نسوة زاد بكاؤهن حينما دخل عليهن. وناحت والدتها متحسرة:

- رحلت دون أن تسعد بليلتها هذه!.

لم يلتفت صوب الوالدة، بل اكتفى بوضع باقة الزهور قربها على السرير الذي لم يعد يتشبع من دفء الجسد.

(3)

قبل أن يضعوا غطاء التابوت هتف:

- انتظروا.

مد يده إلى جيبه، وأخرج علبة صغيرة مكسوة بالمخمل الأحمر. ثم اقترب من التابوت، وتناول يدها التي لم يعتدها باردة. والتقط من العلبة خاتماً ذهبياً وضعه في إصبعها الذي فقد حرارته.

* * *

كانت شمس المغيب تتوارى في الآفاق، عندما أهالوا التراب على الضريح، وقاموا بمراسم الوداع الأخير، وتأهبوا للمغادرة.

ولكنه ظل واقفاً بجانب القبر، بعدما وضع عليه باقة الورد التي ذبلت وتساقطت بعض أوراقها.

اقترب منه أخوه الكبير، وهمس في أذنه:

- يجب أن نذهب.

لكنه أكد بصوت متعب النبرات على مسمع الجميع:

- لا أستطيع تركها وحيدة في الليل..

وأضاف وعلى شفتيه شبح ابتسامة حزينة:

- إنها تخاف الظلام.

المصيدة

استيقظ الطفل باكراً من شدة الجوع، فصوت بكاء أمه لم يكن يزعجه، لأنه اعتاد عليه لكثرة ما سمعه. وقبل أن يدنو منها ويسألها القليل من الطعام سمعها تهمس لأبيه وهي تمسح دموعها عن وجهها الشاحب:

- على قلة طعامنا.. في منزلنا فأر.
- الفئران لا تشبع.

قال الأب بصوته المبحوح، وقد زادت تغضنات وجهه المتجهم. ثم قام متثاقلاً، وأخذ يبحث بين الأغراض القديمة المرمية في العراء، حتى عثر على مصيدة فئران

صدئة، فتناولها وقد ارتسم على شفتيه اليابستين شبح ابتسامة مقتضبة.

وقف الطفل عاري القدمين بجانب والده وهو يتأمله بإعجاب. كان الأب يكسر من رغيف يابس قطعة خبز عفنة، ثم يعلقها بحذر في النتوء الحديدي للمصيدة التي صَلاها ثم وضعها حيث توقع مرور الفأر قرب الباب الخشبي العتيق.

- سننال من الفأر اللص.

قال الأب ضاحكاً وهو ينظر إلى ابنه الذي ورث عنه نحوله، وأنفه الكبير.

* * *

في اليوم التالي قالت الأم لزوجها وهو يطوي بأصابعه الخشنة علبة التبغ التي نفدت دون أن يمتلك ثمن أخرى:

- المصيدة فارغة.. لم يأكل الفأر قطعة الخبز!.

أكد الزوج العابس بثقة وهو يرمي بعلبة التبغ الفارغة من نافذة واطئة تطل على فناء مهجور في طرف المدينة:

- لا تتعجلي الأمر.

وأردف وهو يمسح بيده الخشنة على شعر ولده الأجعد:

- عندما يقرصه الجوع سيأكل الطعم حتماً.

ثم تناول كيساً أسود ذا رائحة عطنة، وضعه على كتفه المائل، ليجمع فيه الأشياء القابلة للبيع التي يعثر عليها في حاويات القمامة.

أسندت الأم ظهرها إلى الجدار المتداعي للغرفة الوحيدة المسقوفة بألواح معدنية من التوتياء، وهي تشيع ظهر زوجها المحني، والدموع في عينيها الصغيرتين.

***

رن صوت المصيدة معلناً وقوع فأر جائع في الفخ.

صرخ الطفل بسعادة بريئة وهو يقفز ويصيح بسرور:

- اصطدناه.. اصطدنا الفأر..

وأردف سائلاً أمه وهو يراها تنزع جثة الفأر الصغير وقد دخلت الأسلاك المعدنية الصدئة في لحمه اللدن المكسو بزغب رمادي اللون:

- أمي.. هل تؤكل الفئران؟!.

لم تجب الأم على سؤال طفلها ، فقد كانت تنتحب بحزن لا يصدق!.

خداع الشوكولا والحب

-1 -

قبّلتْ بشفتيها الرقيقتين وجنة الطفلة الصغيرة التي كانت توزع الشوكولا على المدعوين قبل أن تتناول بدورها قطعة من الشوكولا المغلفة بورقة ملونة لها شكل القلب الذي يرسمه العشاق الأغرار على دفاتر مذكراتهم.

اقتربتُ منها قائلاً وأنا أمد يدي بنصيبي من الشوكولا:

- يسرني أن تقبلي هذه الهدية المتواضعة.

ابتسمتْ قائلة وهي تريني قطعة الشوكولا التي أخذتها منذ قليل:

- لدي ما يكفيني.
- قطعتان.. أفضل من قطعة واحدة.

عقبتُ على قولها وأنا أهز قطعة الشوكولا أمام عينيها البنيتين، كأنني أغريها بتَعَلُّمِ الطمع. فاتسعت ابتسامتها وهي تلتقط الشوكولا بأصابعها الطويلة، فتلامست الأكف في لقاء قصير ودي، وذلك قبل أن تقول بلا مبالاة وهي تنظر إلى شيء ما:

- يبدو أنك لا تحب الشوكولا.

لم يرق لي اتهامها الذي لم أجد مبرراً له، فأسرعت بالدفاع عن نفسي قائلاً:

- كلا..

وأردفتُ وأنا أتأمل أجمل امرأة رأيتها في حياتي:

- أنا أحب الشوكولا كثيراً، بل لقد أحببتها اليوم كما لم أحبها من قبل.
- على أية حال.. شكراً على الهدية.

قالت وهي تضع قطعة الشوكولا في حقيبة يدها الصغيرة المزينة بسلاسل ذهبية دقيقة.

شعرت وقتها أنها تحب الشوكولا كثيراً، وأنها ستحبني أيضاً مادام يجمعنا شيء مشترك، وهو الشغف بالشوكولا اللذيذة.

* * *

شكرت صاحب الدعوة لأنه كان السبب في لقائي بالفتاة التي سلبت قلبي دون استئذان، وأهديته علبة من الشوكولا الفاخرة تقديراً له.

* * *

قبل ذهابي للمواعيد كنت أشتري لها الكثير من الشوكولا، فلم يكن من المناسب برأيي أن يجلس المحبان لتبادل كلمات الحب دون التهام الشوكولا، فكلاهما يبعثان السرور في النفس.

مرة سألتها:

- لماذا لا تأكلين الشوكولا أمامي؟.

- سآكلها عندما أكون بمفردي.. فأحس كأنك تجلس معي.

قالت وهي تضحك بفوضى محببة وتدس قطع الشوكولا في حقيبة يدها التي كنت أظن أنها لم تخل يوماً من الشوكولا بأنواعها.

شعرت بسعادة طاغية، فحبيبتي لديها الكثير من المشاعر الجياشة كي تحس بوجودي قربها وهي تتحسس بلسانها الشوكولا التي قدمتها لها، إنها بلا شك تحلم بي بطريقتها الخاصة التي راقتني حتى الجنون.

-2 -

تنبهت إلى أن زوجتي الجالسة بجانبي على مقعدي المفضل لم تمد يدها المزينة بالأساور الذهبية إلى علبة الشوكولا التي أمامي لتأخذ منها قطعة واحدة على الأقل، رغم أنني كنت أستمتع بنزع القشرة الذهبية عن القطع البنية الشهية، وبالتلذذ بطعمها، والتلمظ بمتعة.

- لماذا لا تأكلين معي الشوكولا؟.

سألتها مستغرباً، ثم أردفت بقلق لم أستطع إخفاءه:

- هل أنتِ مريضة يا عزيزتي ؟.

ضحكتْ زوجتي حتى دمعت عيناها، ثم قالتْ بعفوية لا تصدق:

- بصراحة.. أنا لا أحب الشوكولا!.

وقعت قطعة الشوكولا العارية من قشرتها من يدي على غبار الأرض القاسية وقد اعتراني الخوف المنذر بكارثة لا يمكن الفرار منها.

- وقطع الشوكولا التي كنت أهديك إياها!؟!.

بالكاد خرج صوتي بالسؤال، وقد مرت أمام عيني حتى تفاصيل حياتنا الصغيرة والتافهة دفعة واحدة، فأجابت ببساطة يصعب تصديقها:

- كنت أوزعها على صديقاتي.

وأردفت وهي تضحك، دون أي شعور بالإثم، أو حتى بتأنيب الضمير:

- كانت صديقاتي مولعات بالشوكولا التي كنت تهديني إياها، لهذا كنّ يشجّعنني كثيراً على اللقاء بك.

عندئذ تأكد لي أن حبي لها ذاب دفعة واحدة، كقطعة شوكولا ضائعة تحت الشمس في نهار قائظ. فالمشاعر المشتركة التي كنت أفترض أنها تجمعنا كانت مجرد أوهام في وجداني لا أكثر.

-3 -

- في كل ما قلته لم أجد سبباً واحداً يدعو إلى الطلاق!.

سؤال المحامي جعلني أحس ببلادته غير المحتملة، وبرغم ذلك قلت له بصدق لم أتعمده تماماً:

- لقد خدعتني.. كذبت عليَّ.. غشتني..

وأضفت مؤكداً:

- قد تستطيع الزواج من امرأة لا تحب الشوكولا، ولكن من المحال أن تحب امرأة كانت تتظاهر أمامك بأنّها تحب الشوكولا!.

سيكون في جديد الزمان

-1 -

قال الذين زعموا أنهم اكتشفوا القمر:

ـ ليس مثلما تخيله الشعراء، والمتصوفة، والعشاق، وحتى عامة الناس!.

ـ بل فيه سهول، وجبال، وروابٍ، ووديان!.

ـ يشبه الأرض، ولكن أحجاره أبهى من الماس، وترابه أجمل من الفضة!.

* * *

نتيجة ذاك الاكتشاف العظيم الذي غير مجرى التاريخ عقد مؤتمر دولي عاجل للتباحث حول الجدوى من ذلك الفتح غير المسبوق الذي قلب الموازين، وبدل الاتجاهات.

في ختام الجلسة، توصل المؤتمرون إلى قرار يقضي:

(أن تتولى الشركات العالمية اغتنام الفرصة السانحة، واستثمار الثروات المافوق أرضية، إذ لم يبق في الأرض أي ثروات لم تستثمر).

في البدء.. أرسلوا مجموعات صغيرة من رواد الفضاء بصواريخ حديثة جداً، صنعت خصيصاً لهذا المشروع، لجلب الثروات القمرية. و شيدوا على الأرض (معامل التصنيع الكوني المحدود).

وبادئ ذي بدء.. صنّعوا، وأنتجوا، وطرحوا، في (أسواق بلا حدود) عقوداً، وأقراطاً، وأساور، وخواتم، وأختاماً، وأقلاماً، وساعات، وأوسمة، وأشياء كثيرة لا حصر لها.

كانت الإعلانات عن هذه البضائع العجيبة، تبث دورياً عبر الأقمار الصناعية، ترافقها صور كثيرة متداخلة بتركيب غير مألوف، مع أغانٍ صاخبة:

ـ نعم تبرق.. نعم تلمع.. نعم لها ملمس ناعم.. نعم تبدو كالجليد لكنها لا تذوب.. نعم.. نعم.. نعم.. ن ن ن ع ع ع م م م".

تهافت أثرياء الدنيا على شراء التحف القمرية للتزين بها، والتفاخر بامتلاكها، والمباهاة بمقتنياتهم النفيسة من الثروات اللاأرضية، بعدما ملوا من الثروات الأرضية التي لم تعد تثير اهتمامهم.

* * *

ولكن أكثر الناس لم يفرحوا بما حدث بشأن القمر البعيد، فقد تعمق إحساس الفقراء بالحرمان، فشعروا بالمزيد من الكآبة، وأحسوا بالكثير من الحزن. فهم لم يستطيعوا أن يتمتعوا بثروات الأرض التي يعيشون عليها، فكيف حالهم مع ثروات ليس لها علاقة بالأرض؟!.

* * *

حصيلة الأرباح الهائلة، والتقدم التقني المذهل، تضخمت أكثر مما توقّعته (الشركات الفضائية). فأرسلوا صواريخ عملاقة بداخلها حفارات، ورافعات،

وجرافات، وشاحنات، ورجال آليون. وشرعوا يفككون القمر إلى قطع مختلفة الأحجام، والأشكال، لتعليبها وعرضها في (الأسواق المفتوحة).

فتراكمت المواد القمرية. وحتى يتم الربح السريع اتجه المستثمرون نحو مشاريع (التصنيع الكوني اللامحدود).

فشيدوا (مدينة القمر)!.

شوارعها مرصوفة بحجارة أجمل من الفضة. وقصورها مشيدة بجدران أحلى من الماس. أما المدينة القمرية فذات أنوار لا ظلال لها.

* * *

كان القمر يصغر، ويضمحل، ويتلاشى، حتى لم يعد في الليل أي قمر.

أما الليل داخل المدينة القمرية فنهار دائم، وبياض ناصع دون ظل. وهكذا تساوى في تلك المدينة المسحورة الليل بالنهار!.

أمّا الليل خارج مدينة القمر، فأسود كالح، وظلام دامس موغل في الوحشة، ومثقل بالأسى. فصار من

يسكنون خارج المدينة القمرية يجهلون السهر، وإذا ناموا لا يعرفون الأحلام.

وكيلا يفقد فقراء العالم حقيقة الليل، وبقية القمر، كانوا يحجون ليلاً إلى (ضريح القمر) هكذا اسموا (مدينة القمر)!.

صاروا يجلسون بكآبة على الشوارع الصلدة، ويتكئون على الجدران الملساء، ليبكوا أطلال القمر المسروق.

وهذا العزاء لم يعجب سكان المدينة القمرية، فعقدوا مؤتمراً طارئاً ليبحثوا قضيتهم القمرية:

ـ من يعطي الإذن لحفنة من الأوباش بالاقتراب من مدينتنا الطاهرة؟.

ـ كيف يسمح لهؤلاء الأوغاد بأن يتمتعوا مجاناً بأملاكنا الخاصة؟.

وبسرعة توصل المؤتمرون لقرار يقضي بـ:

(تسوير المدينة القمرية بجدار سميك مدهون بالفضة من الداخل، وبالقار من الخارج. ويتم رفع السور حتى يفصل بين الغيوم، كيلا تتسرب أنوار القمر خارجاً).

-2 -

وحين لم يبق في الليل قمر، اتجه سكان المدينة القمرية نحو الشمس في وضح النهار!.

في البدء: أخذوا قطعاً صغيرة دافئة، ببريق أصفر جذاب. و صنعوا من تلك المادة الجديدة العجيبة: قداحات، ومدافىء، ومسابح، وحمامات، وأصنافاً مختلفة، وأنواعاً كثيرة.

وفيما بعد توسعت (الشركات الشمسية) فبدؤوا يفككون الشمس التي بدأت بدورها تصغر، وتضمحل أيضاً!.

ثم ابتكروا: وروداً، وأزهاراً، وأشجاراً، فتشكلت حدائق شمسية، وبساتين ذات بريق أصفر يخطف الأبصار.

فاكتمل النور في (المدينة النورانية) أعظم مدينة في تاريخ البشرية على كوكب الأرض!!.

-3 -

بعدما تم لأثرياء العالم الجديد الاستيلاء على: الأرض، والقمر، والشمس.

أرسلوا مركبات فضائية عملاقة عابرة للمجرات، بتمويل (شركات ماوراء المجموعة الشمسية).

* * *

صار لأثرياء العالم فقط، الأرض بسمائها، فملكوا أوقات اليوم، وفصول السنة!.

فضاع كل شيء من فقراء العالم، ولم يعودوا يملكون حتى الحق في أن يكون لديهم سماء، فقد صاروا شعباً بلا سماء أو أرض!.

لقد تحول نهارهم ظلاماً دامساً مثل ليلهم الذي لا نهاية له، وتحول صيفهم صقيعاً قارساً كشتائهم الطويل.

-4 -

تروي الأساطير الجديدة:

..كان الفقراء، يتجمعون في دائرة مغلقة حول نار متقدة، فيتدفؤون باشتعال النار التي لا تنير لهم بغير الاحتراق، فلا يشاهدون ما حولهم بغير توهج اللهيب.

.وكانـت العجـائز تـروي حكايـة واحـدة طـوال الوقت:

ـ كان ياما كان.. في قديم الزمان.. شتاء فخريف.. وربيـع فـصيف.. وشـروق فنهـار.. وغـروب فليـل.. ويـوم.. وأسبوع.. وشهر.. وعام.. وسنون.

ـ كـان يامـا كـان.. في قـديم الزمـان.. أشـجار خضراء.. وبحار زرقاء.. وأزاهير حمراء وصفراء ومن كل لون...

ـ كان ياما كان ....

....

....

* * *

تقول الحكايات العتيقة:

إن الأطفـال كـانوا يتعجبـون ويدهـشون، مـن كلمات لا يعرفون معانيها، وأشياء لا يفهمون دلالاتها.

فيتهامسون فيما بينهم:

ـ العجائز خرّفنَ!!!.

كرسي في الذاكرة

(1)

الكرسي الخشبي القديم.. أحرص على وضعه على مقربة من الشرفة كي أجلس عليه مسترخياً باطمئنان، وأنا أقرأ كتب التاريخ المفضلة لدي، وأريح عيني من حين لآخر بالنظر من النافذة المفتوحة على بقعة صغيرة من سماء صافية الزرقة لم تحجبها الأبنية المرتفعة بعد.

ولطالما شعرت وأنا ألمس خشب الكرسي الذي تقشر طلاؤه بأنني ألامس شجرة هرمة تحتويني بحنان، فتطرد عني حر الصيف، وبرد الشتاء، لهذا كنت أشعر بأن الكرسي يختزن ألفة مجهولة تقربه مني، فلا أراه مجرد كرسي عادي كسواه من أثاث المنزل.

ولكن الكرسي ذاته كان أحد أكثر أسباب خلافي مع زوجتي التي ترى أنه لا يتناسب مع (ديكور) منزلنا الجديد ذي الأثاث الثمين، فكانت تعترض على وجوده، مستغلة أية فرصة، علها تنجح في إقناعي بالاستغناء عنه.

- كرسيك يجعل الأشياء غير متناسقة!.

تقول بود مصطنع، أو تقول بنزق:

- الردهة تشكو من عدم الانسجام بسبب كرسيك العتيق!.

فأرد عليها، متحاشياً إثارة غضبها:

- هذا ليس كرسياً عادياً، فعندما أقضي أوقات فراغي معه لا أشعر بالوحدة، إنه مثل أي صديق قديم.

فتعقب زوجتي باستخفاف من أفكار تجدها خيالية أكثر مما ينبغي:

- حاول أن تغير هذه الأفكار البائدة، وتتطور كسائر الناس.

- لا أقدر.. فأنا لا أستطيع الانسجام مع نفسي إلا بالجلوس على هذا الكرسي تحديداً.

فتصمت غير قانعة بحجتي التي لا أملك سواها، وهي ترمقني شزراً. بينما أكون قد دخلت عوالمي الخاصة، وأنا أستمتع بجلستي على الكرسي، وأقرأ في كتبي التي تنقلني إلى عهود مضت منذ زمن بعيد.

* * *

من يَزُرْ منزلنا للمرة الأولى كان يسأل عادة عن الكرسي القديم، لشكله المختلف عن باقي الأثاث. فيكون حديث الجلسة الأولى، أو بدايتها. وهذا ما كان يضاعف من حنق زوجتي، ويزيد من رغبتها في التخلص منه. ولكنني كنت أتعمد تجاهل ملامح وجهها الغاضب، وأنصت للزائر الذي يسأل في محاولة منه للتآلف مع المكان وأصحابه:

- من أين اشتريته؟.

أو يستفسر:

- ألم ترثه من أحد أجدادك؟.

وربما يقول مجاملاً:

- ما أجمل كرسيك.. إنه تحفة نادرة!.

فأشعر بالحبور لأن الفرصة سنحت لي بالتحدث عما أرغب، فأعيد رواية حصولي عليه بشغف لا يفقد

بريقه، متذكراً عهد طفولتي الهانئة في القرية التي لم يعد لها وجود إلا في الذاكرة.

ودائماً كنت أبدأ حكايتي المفضلة بعد رشف ما في فنجاني من قهوة شهية، وأنا أدعو الزائر لشرب قهوته قبل أن تبرد.

ثم أستعيد تلك الأيام الهانئة، مسترجعاً طفولتي وأنا ألجأ بطمأنينة إلى حضن أمي الذي يفيض دفئاً:

- كانت أمي رحمها الله لا تجلس إلاّ على هذا الكرسي.

وأردف، وأنا أتحسس خشبه البني العتيق، كأنني ألامس بشرة يدي أمي الحنون التي رسم الشقاء باكراً أثلامه على أصابعها النحيلة:

- سألت أمي يوماً عن هذا الكرسي. فقالت وهي تمسح دمعة ساخنة عن بشرة خدها المجعد:

- رحم الله والدك الذي صنعه من شجرة اقتلعوها أثناء تعبيد طريق القرية الذي يصلها بالمدينة.

ثم تضيف بجدية، وهي تبتسم بحنو:

- إن الكراسي القديمة التي صنعها أجدادنا تشعرنا بأن أحباءنا الذين جلسوا عليها لم يغادرونا، بل

يجلسون معنا كي يؤنسوا وحشتنا عندما نكون بمفردنا.

وقد تسترسل وهي تغمض عينيها، كأنها تحاول أن تسترجع إلى مساحة الرؤية ذكريات لم تخلف غير الحسرة:

- الأشياء تشبهنا عندما تجاورنا لمدة طويلة.

وقد تبتسم وهي تتأمل ما حولها بحب يفيض من عينيها:

- لمنزل العائلة ألفة تتوزع حتى في الأشياء التي لا تتنفس الهواء.

فكنت أعجب من جمال أفكار أمي التي لا تجيد القراءة والكتابة، فأصمت منصتاً بشغف إلى حكاياتها، كي أتعلم من خبرتها أشياء مهمة قد لا أعثر عليها في الكتب الجامعية التي كنت أدرس فيها وقتذاك.

لذلك كنت أؤكد عندما أتحدث، وأنا أشد يدي بقوة على ذراعي الكرسي، وأنظر بحب إلى طفلي الصغير اللاهي بألعابه دون أن يعبأ بكلامي:

- سأورثه لولدي.

ثم أضيف مؤكداً، وأنا أتأمل عيني طفلي المدهوش من كلام يجهل معانيه:

- إذا لم يربطنا الحنين إلى أشيائنا القديمة فلن نشعر بالانتماء أبداً.

(2)

بعد عودتي من سفرة استغرقت أيّاماً عدة، لم أجد الكرسي في مكانه، فظننت للوهلة الأولى أنني أخطأت عنوان بيتي! ولكن بعدما رأيت زوجتي بوجهها الذي كساه الشحوب، صحت بجزع:

- أين هو؟!.
- أعطيته لبائع الأثاث المستعمل.

قالت بحزم دفعة واحدة، كأنها تفرغ ما في أحشائها من قَيْءٍ صبرت عليه طويلاً. ثم أردفت بعدما أذهلتني المفاجأة فلم أنبس بكلمة:

- لم أعد أستطيع تحمل كرسيك.

صرخت بغضب بوجه زوجتي التي توارت في حجرتها لتبكي. وهي تقول مهددة:

- إذا كنت تفضل كرسيك علي فسأرحل عن البيت.

وبكى طفلي بدوره وهو يلوذ بأمه ناشداً الطمأنينة. فأشفقت على أسرتي الصغيرة، وصمت مكرهاً، ورضخت للأمر الواقع على مضض.

❋ ❋ ❋

لم أعد أستمتع بالجلوس على أي كرسي آخر، كما رفضت الجلوس على الكرسي الجديد الذي أهدتني إياه زوجتي، في محاولة منها لتعويضي عن الكرسي الذي طردته من حياتي دون عودة، بعدما شعرت بتأنيب الضمير، وبفداحة ما صنعت بتحفتي الثمينة.

في الفترة ذاتها شعرت بفقدان والدتي كثيراً، كأنه لم يمض على وفاتها سنوات طويلة.

ومنذ ذلك اليوم صرت أذهب للطبيب للمعالجة بسبب آلام حادة في فقرات ظهري السفلى.

(3)

على الرغم من مرور سنوات طويلة، فشلت محاولاتي جميعها في العثور على الكرسي المفقود، وبرغم ذلك لم يغادر ذاكرتي، بل كثيراً ما كنت أحلم بأنني أجلس عليه وأنا أقرأ في كتبي العتيقة.

إنّ شعوري بفقدانه كان يزداد وأنا أحمل حفيدي في حجري وألاعبه، عندئذ كنت أروي له حكاية كرسي قديم مسحور، كل من يجلس عليه تتحقق أمانيه:

فكان حفيدي يرمش بعينيه بسرعة، ويسألني بحماس:

- وأين هذا الكرسي يا جدي؟!.

فأجيبه وأنا أعدل من هيئة جلستي لألم قديم في ظهري، وأنظر من خلف زجاج النافذة التي لم تعد تطل على غير الأبنية الشاهقة:

- مثل هذا الكرسي لم يعد له وجود إلا في الحكايات!.

عشق في المقبرة

رفضت الإقرار بأن زوجها الذي زفت إليه- بعدما أقسم والدها وإخوتها الذكور إنهم سيحلقون شواربهم إذا جمعهما فراش واحد- مات بهذه البساطة، فكيف تصدق أن رصاصة طائشة اخترقت قلبه الذي تعلق بها مذ رآها للمرة الأولى وهو يرقص فرحاً في عرس أحد أقربائه عندما كانت تغني أغنية حب قديمة.

لم تتقبل العزاء تحت السقف الذي بادلته الحب تحته حتى ساعات متأخرة من الليل، ولم ترتدِ ثياب الحداد لأنه لم يكن يسمح لها بشراء ملابس ذات لون داكن، لهذا ظلت تحرص على زينتها لأنه كان يحب أن يراها دائما أجمل نساء القرية، وكانت تتعمد أن تفوح رائحة العطر حتى من أصابع قدميها.

كانت تقول لمن تصادفه في الطريق من جيرانها دون أن يبادرها بالسؤال عن وجهتها :

_ اشتقت إليه..

وتضيف مؤكدة عزمها :

_ أريد أن أراه!.

فيعرف السامع أنها تتحدث عن زوجها المدفون في المقبرة القريبة المحاذية لطرف المدينة حيث بساتين اللوز التي اكتست بالخضرة الناضرة، والبراعم البيضاء التي تسقطها الريح بسهولة إذا عابثتها بقوة.

***

قالت، وهي تجلس بجانب القبر على حصيرة متربة كانت وضعتها من قبل بجانب قبر زوجها الذي ترسم حدوده مجموعة من الأحجار الصغيرة، بعكس القبور المجاورة له التي ارتفع فوقها مستطيلات من الرخام الأبيض المصقول:

- معك حق.. فالبقاء داخل التابوت طوال اليوم ممل جداً، وحسناً ما فعلت بجلوسك فوق القبر تستمتع بتأمل السماء الزرقاء دون أن يعكر صفوك أحد. كم أحسدك وأتمنى أن أقضي الليل معك نراقب القمر والنجوم..

ثم أردفت بحسرة وهي تمسح دموعها السخية:

- ولكن تعرف جيداً أن أسرتي تمنعني من ذلك.

ابتسم لها بود، وهو متكئ على شاهدة الضريح. وسألها وهو يحتضن كتفيها بذراعه الضخمة:

- هل أحضرت ما أوصيتك عليه؟.

- أجل ها هي علب التبغ. كما طبخت لك أكلتك المفضلة. ولم أنس البصل.

قالت بسرور وهي تفتح الأكياس التي كانت تحملها، ثم أردفت بخيبة:

- لكنني نسيت أن أحضر الشاي والسكر.

- لا عليك فلدي بعض الشاي، ونستطيع شربه دون سكر.

قال بلا مبالاة، فأخذت تفكر في أنه قد تغير كثيراً بعدما رحل عن المنزل وسكن في المقبرة، فلم يعد ذلك الرجل العنيد الذي يضرب زوجته لأتفه الأسباب، وصار رجلاً لطيفاً حلو المعشر.

- كلي معي.

قال وهو يشير إلى الصحون، وفمه مليء بالطعام.

- أكلت في المنزل.

قالت. ثم صمتت قليلاً لتتأمله وهو يأكل بشهية الطعام الذي طبخته لأجله، ثم أردفت:

- لا أريد أخذ شيء من حصتك.

ضحك وقد اعتراه شيء من الارتباك، فقال مدارياً خجله:

- سخني الماء لأجل الشاي.

جمعت الصحون الفارغة لتأخذها معها إلى البيت كي تنظفها وتملأها بالطعام مرة أخرى لتحضرها له في الزيارة القادمة. ثم جلست قربه وهي تتكئ على كتفه دون أن تزعجها رائحة عرقه، وبيدها كأس من الزجاج

الـذي يـشف عـن سـائل خمـري سـاخن يـصعد بخـاره إلى السماء كأرواح لطيفة تحاول الصعود إلى هناك.

- لا أحب التدخين إلا معك.

قالـت وهـي تتنـاول مـن يَـدِهِ الـكبيرة لفافـة تبـغ لفهـا للتو بأصابعه بعدما بلل طرفها بلسانه.

- ربما هذا من سوء حظك.

قال وهو يطلق إحدى ضحكاته القوية.

تصنعت العبوس، وقالت بلهجة مؤنبة:

- أنت لا تجيد سوى الضحك..

وأردفت بعتب:

- لقد طلبت منك مراراً أن تبني لنـا غرفـة هنـا، أو على الأقل خيمة صغيرة تجمعنا معاً.

- لا تخـشي شـيئاً فـالأموات لا يعنـيهم النظـر إلى النساء.

قال وهو يضحك حتى دمعت عيناه، ثم أردف:

_ أما الأحياء.. فعندما يدخلون جنازة فإنّهم يزعجون بصخبهم حتى الأموات من مئة عام، وبذلك نأخذ حذرنا

ونختبئ كيلا يزعجنا الفضوليّون بأسئلتهم الكثيرة.

- والزائرون لقبور موتاهم.

سألته كأنها تريد الإيقاع به في مأزق لا خروج منه. ولكنه أجابها مباشرة:

- القبور القديمة منسية تماماً.

- لكنني لم أنسك يوماً.

قالت بحزن عميق لم تستطع إخفاءه، وهي تمسح دمعة ساخنة انزلقت على خدها. فقال لمجرد أن ينسيها حزنها ويغير الموضوع:

- القبور الجديدة في الطرف الآخر من المقبرة. ثم إنني صرت أعرف من يزورون موتاهم ومتى.

- متى تعود لمنزلنا؟.

سألته برجاء، فانقبضت ملامح وجهه، وقال بنزق:

- لن أعود.. فأنتِ تعرفين أنني إذا عدت فسوف يتهمونني.

أرتج عليه فصمت، فألحت بالسؤال فأجابها:

- سوف يأخذونني إلى السجن وأحرم من رؤيتك.

شهقت، ثم قالت بأسف:

- سنظل نلتقي على هذه الحال؟.

- نعم.. سنبقى كالعشاق إلى أن تموتي ويدفنوك في هذه المقبرة.

قال وهو يداعب شعرها الناعم الطويل، وقد أحس بأنه قسا عليها، فأردف:

- حافظي على نفسكِ.

- لن أموت مثلكَ، فأنا لم أعد أرقص في الأعراس كيلا تصيبني رصاصة طائشة.

جلجلت ضحكته في سكون المقبرة، فضحكت معه، ثم سرعان ما علا وجهها العبوس وقالت:

- يقولون إن هناك لصّاً يختبئ في هذه المقبرة، أخشى عليكَ منه، فقد يؤذيكَ.

نظر في عينيها السوداويين طويلاً، ثم قال وهو يفك زر قميصها العلوي.

- لا عليكِ يا عزيزتي.. فاللصوص الكبار يختبئون في المدينة، فهم لا يجرؤون على دخول المقابر لأنهم يخافون من الموت كثيراً.

أغمضت عينيها بنشوة، فقد خشيت إن فتحتهما ألا تجد أمامها غير أطياف الأشباح التي تتجول في المقبرة بسكون مريب.

مجرد جريمة أولى

الظلمة القريبة الحلول لمساء خريفي ساهمت في ستر أجسادهم الصغيرة المنكمشة خلف شواهد حجرية متآكلة لم يعد يزورها أو يتذكرها أحد منذ زمن بعيد.

لم يكن لهذا التخفي المريب مبرّرٌ، ولكنهم رغبوا في أن يقوموا بلعبتهم الخطرة بإتقان يتفاخرون به طيلة حياتهم.

* * *

عقب عبارات قصيرة ضائعة تحت سماء داكنة الزرقة، صمتوا بسعادة مربكة، وكتموا بحبور ضحكاتهم العفوية، بعد ترقب عجيب لم يعتادوه من قبل، كي يباغتوه بشجاعة لا تهاب الصعاب.

مـن ينتظرونـه أتـى بـصمت غـير مقـصود، كـشبح مـسالم ليس لديه رغبة حتى في إخافة مرهفـي المشاعر الـذين يتمتعـون بترف لا يعـني أحداً. فلقـد كـانت قـدماه العاريتان تدوسـان شـارعاً متربـاً، قـذراً، ضـيقاً، لا تعـبره سوى جنازات طارئة لأموات لا يهربـون مـن نهايـة الأجـل، لأنه ليست لديهم أحلام عظيمة، أو سعيدة.

اقـترب الـشبح الـداكن مـن حاويـة قمامـة صـدئة، مقلوبة، اعتاد أن يتكـور بداخلها، متَّقيـاً حـرارة وبـرودة العالم من حوله، كجنين منبوذ في رحم خاطئة غُرِّر بها.

عندما توسط الشبح الذي اتضحت ملامحه الباهتة مـن دائـرة ضـيقة رسموهـا بمخيلـتهم، سـحبوا مـن بـين ملابسهم سـكاكينهم الملونـة، والمزينـة بنجـوم براقـة لهـا لون الـذهب، فبرقت علـى النـصال المرهفـة أضـواء قادمـة من مصابيح الشوارع التي تمتد بعيداً في مدينة لا مبالية.

ثـم وثبـوا معـاً مـشكلين دائـرة وهميـة مـن مـشاعر مضطربة، وأحاسيس متضاربة، حول الرجل الذي انتهى عمره ببساطة، كلحظة ميلاد لم ينتظرها أحد.

وقبـل أن تتلاشـى صـرخته الفزعـة - الـتي فجرهـا المختبئـون بـين القبـور - مـن فمـه الأدرد الـذي لم يعهـد طعم القبل، حتى مذاق قبلة يد الأم.

انطلقت صرخة آلام ضارية، بعثتها النصال الحادة التي انغرست بإصرار في الجسد النحيل الذي هوى بانكسار على تراب سبقته إليه دماؤه الغزيرة، كدموع عينيه اللتين ما عرفتا نظرات الألفة يوماً.

اختلج جسده بهزات سريعة.. محدودة.

ثم همد الجسد وهم ينظرون إليه بتمعن، كيلا تغيب عنهم أدق تفاصيل الموت المجهول. كأنهم بشوق ينظرون إلى دجاجة مذبوحة، ستطهى وقت عشاء تلتف حوله الأسرة لتنعم بالطعام الشهي، اللذيذ.

ارتجف صاحب السن المكسور، وهمس بصوت مخنوق متلعثم:

- لم يعد يتحرك.. هل مات حقاً؟!.
- مات بالتأكيد.. هل تظننا كنا نمزح؟.

أجابه الذي يلهو بسلسلة، وهو يربت على ظهر رفيقه بقوة.

عقب صمت قصير عاد إلى مكانه وهو يرفع سرواله بعدما أفرغ مثانته، وقال باستخفاف:

- كن رجلاً.

أخرج أكبرهم عمراً علبة التبغ، ووزع على كل منهم سيجارة وهو يقول بثقة:

- الرجال يقومون بجرائم قتل دائماً..

وأردف، وهو يشعل السجائر:

- غالباً ما تكون جرائم القتل لنيل امرأة جميلة.. أو امتلاك مال وفير.

قال الذي يلهو بالسلسلة:

- يجب أن نغسل سكاكيننا من الدماء.. كيلا يفتضح أمرنا.

فقال أصغرهم ضاحكاً:

- لا تخشَ شيئاً.. فالجميع يظنون أننا ما زلنا صغاراً.

تعالت ضحكاتهم وهم يطوون سكاكينهم الملونة، ويضعونها في جيوبهم بعد مسحها بمناديل بيضاء، قذفوها بلا مبالاة.

طيرت الريح الباردة المناديل الملطخة ببقع الدم الحمراء القانية، بينما بقيت الجثة مكانها، لحشرات نهمة، وقوارض سمينة، أدمنت التهام اللحم البشري.

غادر الصبية المكان، وهم يترنمون بلحن صحيح الإيقاع، لأغنية حفظوها من المدرسة، تدور كلماتها عن نحلة نشيطة تحط بتؤدة على أزاهير زاهية لا يقطفها الأولاد الطيبون!!!

الأطلال

ما إن تجاوز الباب الخشبي العتيق حتى عثر على طاولة شاغرة، وكرسي خشبي قديم كان فيما مضى جزءاً من شجرة كبيرة تحتمي فيها الطيور من العواصف الهوجاء، فتهالك عليه متعباً من مشاق السفر الطويل، وأغمض عينيه ناشداً قيلولة قصيرة، ولكن ضجة المقهى لم تتح له الاستمتاع بالغفوة المرجوة، فاعتدل بخيبة في جلسته، وطلب فنجاناً من القهوة المرة، واخذ يتصفح الجرائد التي اصطحبها معه ليقرأها ريثما يحين موعد القطار الذي سيقله خارج بلده لمدة يجهلها، فهو لم يقرر، أيعود إلى وطنه بعد بضع سنين إذا استقرت الأحوال؟.. أم يستقر في وطن الاغتراب حيث الأحلام الموعودة بالطمأنينة والحب والمال؟!.

الرجال الجالسون على الطاولة بمحاذاته لم يدعوه يستغرق في القراءة أيضا، فقد كانوا يتحدثون على سجيتهم، من دون أن يعنيهم أنّهم قد يسبّبون ضيقاً وإزعاجاً للآخرين.

- أجل يا عزيزي ما زلت أذكر التمثال جيداً، كنا في طفولتنا نلعب حوله طوال اليوم، وكثيراً ما اختبأنا خلفه وتسلقناه.

قال الرجل الأول، ثم زفر بتنهيدة طويلة، كأنّه كان يتحدث عن امرأة خلفت في قلبه جرحاً غائراً لم يقدر الزمن على شفائه.

- لم يكن التمثال بهذه الضخامة التي تصورها للآخرين.

قال الرجل الثاني، ثم أطلق ضحكة قوية كادت تحطم الزجاج المغبر الذي يفصل المقهى عن الشارع. فاحتج الرجل الأول وهو يضرب بيده الطاولة التي اهتزّت عليها فناجين القهوة والشاي، ثم قال بحدة:

- كنا صغاراً، لهذا كنا نبدو كأقزام صغيرة بجانب مارد عملاق.

توقف الرجل الثاني عن الضحك ليقول:

- ولكنه تمثال نصفي، حتى إنه بالحجم العادي.

ثم عاد يضحك من جديد، كأنه يقصد المناكدة لا غير. وهذا ما جعل الرجل الأول يقول بلهجة مهددة:

- اختر واحدة من اثنتين.. أما أن تكون ذاكرتك ضعفت بعد تقدمك في السن، أو أن الخرف أصابك بعدما صرت عجوزاً.

لم يثر الاتهام حمية الرجل الثاني، وتابع ضحكه العبثي، فوجد الرجل الثالث الفرصة مناسبة ليقول رأيه بعد ترقب:

- لعل كُلاً منكما يتحدث عن تمثال معين.. كلاكما صادق وأنا أشهد بذلك أمام الجميع..

وأردف بنبرة لا تتغير ولا تعبّر عما يجول في رأسه الكبير:

- وأمام المحاكم إذا رغبتم في ذلك.

أسرع الرجل الأول في القول:

- إنني أتحدث عن التمثال الذي يقع في الحديقة العمومية المواجهة للبرلمان.

وأكد الرجل الثاني:

- أنا أيضا أتحدث عن التمثال ذاته.. حتى إنني أجهل إذا كان في مدينتنا تمثال سواه.

كاد الرجل الذي يتصفح الجريدة أن يرميها جانباً، ويخاطبهم: الأمر بسيط جداً، ولا يحتاج إلى الجدل والمناقشة، اذهبوا جميعاً إلى الحديقة، وحدقوا في التمثال معاً، وستعرفون المصيب منكم من المخطئ. ولكنه آثر الصمت كيلا يتهمه الرجال باستراق السمع إليهم، أو بأنه يريد بهم سوءاً.

- كم شعرنا بالحزن عندما قرر المسؤولون عن الحدائق العامة نقل التمثال إلى المتحف. ولكن فرحتنا لم تكتمل بعدما عدلوا عن الأمر، فقد تحطم رأسه وهم يهمون بنقله، فالحجر متصدع من كثرة ما مر عليه من لهيب شمس حارقة ومطر سيّال.

تدخل ذو الصوت الخشن في الحديث، فمال الرجل الثاني برأسه صوبه وقال:

- لم يكونوا يريدون نقل التمثال إلى المتحف، لأنه ببساطة غير أثري. أما سبب نقله فيعود إلى أن مدير الحدائق وجده تمثالاً لا أهمية له، بل وجده نافراً بشكله الغريب، وهذا يسيء إلى جمال الطبيعة من حوله، فأراد رميه في مكب القمامة الواقعة على أطراف المدينة.

صرخ الرجل الأول:

- من يجرؤ على زحزحة التمثال من مكانه ولو لشبر واحد؟! إنه تمثال لرجل صالح وكريم، كان يوزع بركاته على المرضى فيشفون بإذن الله، لو كنا في عصره لم يهزمنا المرض ما حيينا.

ضحك الرجل الثالث وقال بهدوء:

- قرأت في الكتب القديمة، أن التمثال أقيم للشاعر الشهير (أمجد بن العالي) الذي مدح السلطان المعظم بقصيدة نقشت بماء الذهب على قبر الشاعر بعد وفاته مسموما.

عقب ذو الصوت الخشن على ما سمعه:

- أنت مخطئ، التمثال هو للسلطان الأعظم ذاته، والشاعر ولد بعد وفاة السلطان بأكثر من مئة عام على الأقل.

تداخلت ضحكات الجميع بين شامتة وساخرة، حتى قطعها صوت يتميز بالرصانة:

- كل هذا مجرد شائعات.. فالتمثال في الواقع لا يمثل إلا ذاته، فحتى النحات لا يعرفه الناس. ربما كان أحد الهواة قد تبرع به للحديقة، أو لعله أراد التخلص منه لأنه يذكره بفشله كفنان.

عاد الرجل الأول ليتكلم بحدة أكبر:

- أنت من تطلق الشائعات، فتمثال بهذه الروعة صنعه نحات محترف ليتمتع الناس بمنظره الجميل.

- معك حق.. منظره الجميل يمتعنا جميعا.

قال أحد الرجال وهو يكر حبات مسبحته بيد مرتعشة، فساد الضحك والمرج، إلى أن طرح ذو الصوت الخشن سؤالاً لم يتوقعه أحد منهم:

- هل يوجد بينكم من يعرف كيف كسر السيف الذي كان بيد التمثال؟.

قال الذي يكر حبات المسبحة في يده:

- سمعت من بائع ورق اليانصيب أن السيف كسر في أثناء التظاهرات الحاشدة التي أقامها حزب لم أعد أذكر اسمه احتجاجاً على التزوير في الانتخابات الـ..

قاطعه صاحب الصوت الرصين بصوت هامس:

- أرجوكم بدّلوا الموضوع.. كيلا نقضي بقية حياتنا مقيدين لا نستطيع الحركة كالتمثال اللعين الذي تتحدثون عنه.

ضج الجميع بالضحك، وكأنهم اتفقوا على شيء وحيد للمرة الأولى، ثم عمَّ صمت تقطعه أصوات السعال، وقرقرة الأراجيل.

- أصابت التمثال قذيفة طائشة في الحرب، وربما كانت القذيفة تستهدف نسف التمثال لأنه كان رمزاً وطنياً.

قال ذو الصوت الرصين بلهجة حازمة، وسرعان ما عقب عليه الرجل الذي لا تتوقف أصابعه عن كر حبات المسبحة، فقال ساخراً:

- أنا ولدت في هذه المدينة منذ أكثر من نصف قرن ولم أعرف أن التمثال رمز وطني حتى الآن.

طرح السؤال نادل المقهى وهو يضع فناجين القهوة على الطاولة:

- عن أي حرب تتحدثون؟.

- الحرب التي هطل فيها الثلج.. لقد توفي أبي مدفوناً تحت ركام الجليد، وقد نجت أمي بأعجوبة، ولكن انفجر لغم بسيارة الإسعاف التي نقلتها إلى المشفى فماتت على الفور مع الطاقم الطبي.

قال الرجل الثاني بصوت حزين حقاً، ورغم ذلك ضج الرجال بالضحك، فابتسم الذي بيده الجريدة لأنه وجد الأمر يستدعي الضحك حقاً برغم أنه بالغ القسوة. ثم حاول متابعة قراءة عناوين الصفحات المتبقية بعدما انتهى من قراءة عناوين الصفحات الأولى.

- أيها المغفلون أمركم عجيب، فالجميع يعرف أن يد التمثال اليمنى وليس السيف تحطمت في إثر انفجار دبرته إحدى المجموعات الإرهابية، فلماذا لا نتحدث بجرأة.

قال صاحب المسبحة، فرد ذو الصوت الرصين:

- أرجوكم كفوا عن هذا الحديث.. تحدثوا عن أي شي آخر.. ففي العالم الكثير من الأشياء غير التماثيل.

- تذكرت الآن.. أجل انكسر السيف.. ولكن نتيجة العوامل الجوية، ولا أعرف لماذا أنتم مغرمون باللغو والهذر دون طائل.

قال الرجل الثاني ثم صمت، كأنه يريد معرفة وقع كلامه عليهم. ولم يطل انتظاره إذ سرعان ما قال الرجل الأول:

- يا رجل.. لا أعرف إذا كنت تسخر منهم أم أنت جاد في كلامك.. التمثال لم يكن في يده سيف.

قال الرجل الثالث:

- لم يكن بيده سيف لأنه كان تمثال امرأة..

وأضاف بحماسة:

- امرأة عارية باهرة الجمال.

اختلطت أصوات الرجال فيما بينهم، فلم يعد يتبين ما يتحدثون عنه، خلا بعض الشتائم المقذعة. ولم يأبه الرجل الذي يتصفح الجريدة للأمر، ففقد الرغبة في الاستمرار بالجلوس واستراق السمع، لاسيما أن رائحة الدخان الثقيلة أثقلت صدره، فخرج من باب المقهى دون أن ينظر إليهم كيلا يظنوا أنه كان يتجسس عليهم. ثم وقف خارج المقهى، وعبّ نفساً عميقاً، فأزعجته رائحة كريهة يجهل مصدرها، فطوّح يده أمام وجهه كأنه يطرد الروائح المزعجة وبقايا السباب العالق في أذنيه. ثم أخذ يلتفت حوله مكتشفاً المكان، فلم يرَ شيئاً يستحق الاهتمام رغم أنه يرى الساحة للمرة الأولى.

***

غذ خطاه في الشارع الموازي للمقهى، متبعاً بحرص إرشادات الرجل الذي دله على مكان الحديقة العامة، ناشداً أن ينعم ببعض الهدوء والسكينة وهو مستلقٍ على العشب الأخضر بفيء الأشجار الوارفة، ريثما يأزف موعد الرحيل.

ولكن ما إن ولج الحديقة الصغيرة حتى اعتراه الذهول، فالأشجار كانت أشبه بأعواد يابسة من الحطب، والأعشاب هشيم يابس تذروه الريح جيئة وذهاباً، وثمة مربع حجري كبير تآكلت حوافه، ولكنها مازالت تحتفظ ببقايا أحرف وأرقام لا يمكن قراءتها، غير أنها تدل على أن الحجر القديم كان قاعدة لتمثال لم يعد له وجود.

أحس بالخديعة بطريقة ما، فرجع القهقرى إلى المقهى وقد عزم على الخروج من دائرة الصمت، بل عزم أن يصرخ بوجوههم بأنهم مجرد ثرثارين لا طائل من كلامهم، ولم يعد يعنيه إذا اتهموه بأية صفة مخزية، ولكن ما إن دخل المقهى حتى تبددت مشاعر الخذلان واعتلته الحيرة، فقد كان رواد المقهى جالسين كعهده بهم وكأن شيئاً لم يحدث، بينما اشتد جدال الرجال حتى بدؤوا يتضاربون بعصي بيضاء طويلة يلوحون بها كيفما اتفق، أما وجوههم الشاحبة فكانت مغطاة بنظارات سوداء تخفي عيونهم المطفأة منذ سنوات بعيدة.

قريباً من الأعمدة القديمة

- هل سيطردوننا من بيوتنا حقاً؟.

تساءل أبو عبد الله وهو يرجو أن يسمع إجابة شافية، ولو على سبيل بث أمل مخادع، فمنذ أيام وهو يعيد السؤال عينهُ على كل من يلتقيه من سكان قريته ليأتيه الجواب خلافاً لما يرجو ويأمل في كل مرة.

- وزعوا الإنذارات منذ شهر، وقد لا يمهلوننا شهراً آخر.

لم يكن أبو محمود يجيب على سؤال جاره بقدر ما كان يعبر عما يجول في ذهنه هو أيضاً، فلم يكن أقل حزناً وإدراكاً لهول المصيبة منه، على الرغم من أنه أكثر واقعية، لهذا لم يأمل بحدوث معجزة سعيدة

تنجيهم من الكارثة التي تحيق بهم من كل صوب وناحية.

- ليتنا متنا قبل هذا اليوم.

قال أبو عبد الله باستسلام، وقد رفع بصره إلى سماء خالية من الغيوم، يوشيها في خط الأفق بقع دامية لشمس أوشكت على الأفول.

استغفر أبو محمود ربه على مسمع من رفيق عمره وهو يتناول من جيب سترته العتيقة التي تآكلت حوافها علبة معدنية محشوة بالتبغ، وقداحة بالكاد تشتعل نارها. ثم قال بسخرية مرة وهو يذر القليل من التبغ على ورقة صغيرة بين أصابعه:

- كانوا سينبشون قبورنا.

انتفض أبو عبد الله صائحاً وهو يطوح بيديه، كأنه يبعد وحشاً مفترساً يريد الانقضاض عليه:

- هذا أمر شنيع، وتحرّمه الشرائع والأديان كلّها.

- على أية حال.. نبش قبور الأموات أخف وطأة من طرد الأحياء من بيوتهم.

قال أبو محمود بعدما داهمته نوبة سعال حادة بصق عقبها على أرض قاحلة لم ينبت فيها العشب منذ سنوات.

- أجل.

غمغم أبو عبد الله وهو ينقل بصره الكليل بين بيوت قريته التي حاق بها الصمت المطبق، والأعمدة الصخرية العملاقة التي ينتظم ما بقي منها في صف طويل، ثم سأل الجالس بجانبه رغم أنه يعرف الإجابة، وكأنه يريد التأكد من الأمر فحسب، فهو لم يستطع تصديق ما يجري بسهولة:

- لماذا سيطردوننا من بيوتنا؟!.

- سيأتي الأجانب ليتفرجوا على الآثار ويلتقطوا الصور لها.

كان هذا الجواب المقتضب يزيد من حيرة أبي عبد الله في كل مرة، فما الفائدة من التقاط الصور لأحجار قديمة مبعثرة كانت فيما مضى قصوراً عظيمة يسكنها الجبابرة من الملوك والأمراء، لهذا كان يطرح في كل مرة استفسارات أخرى حول الموضوع ذاته بأسلوبه الخاص:

- لكن.. هل نذهب نحن لنتفرج على بلدانهم ونلتقط الصور؟!.

- يزعمون أن أجدادهم شيدوا تلك الأبنية المهدمة.

انتفض أبو عبد الله فقد بلغ الأمر ذروته ولم يعد قادراً على تحمل المزيد من الإهانة، فأكد بنبرة حادة وهو يشير بيديه الهزيلتين إلى ما حوله:

- هذا غير صحيح، أنا أبصرت النور هنا ولم أجد غريباً واحداً يضع حجراً فوق حجر.

وأضاف دون أن تخف نبرة صوته العالية، كأنه ينطق بحقيقة لا تقبل الدحض:

- أبي كان يروي لنا الحكايات عن أجداده الذين قطنوا هنا منذ زمن بعيد.

- لقد اتخذ المسؤولون القرار بإزالة منازلنا ولن يثنيهم شيء عما عزموا عليه.

- أليس هؤلاء المسؤولون من بني جلدتنا.؟

- لن نجد من يستمع إلينا، فنحن لا يأبه لنا أحد من أصحاب المناصب.

أكد أبو محمود بلهجة العارف، فأُسْقِط بين يدي جاره الذي رمى بكل قوته على الأرض عقب لفافة محترق، وأخذ يتأمل ذبالتها وهي تنطفئ ببطء. ثم قال بلهجة فيها الكثير من الاستسلام وهو يتناول من يد رفيقه سيجارة أخرى:

- حسناً.. ليلتقطوا ما شاؤوا من الصور فنحن لن نمنعهم من ذلك.

وصمت أبو عبد الله مكتفياً بما قال، فلم يعد قادراً على التنازل أكثر من ذلك. ولأنه لم يسمع من يؤيد وجهة نظره استأنف كلامه:

- لن نعترض عليهم ولن نؤذيهم. ليتركونا وشأننا.

- أين سينامون ويأكلون؟.

- ما دخلنا نحن؟!.

ثم أردف:

- ليعودوا من حيث جاؤوا.

- إنهم قادمون من بلاد بعيدة لهذا سيشيدون على أرضنا الفنادق، والمطاعم، والمراقص أيضاً.

- أعوذ بالله.. عندها سيحل الخراب حتماً وسوف تدك الأرض دكاً.

أطلق أبو محمود ضحكة بائسة كشفت عن بقايا أسنان مثرمة. ثم قال بسخرية:

- يزعمون أنهم سيوزعون علينا الكثير من المال لنشتري بيوتاً جديدة في المدينة.

وأضاف بيأس:

- أتصدق أن ابني الكبير يظن أنهم سوف يدعونه يعمل معهم كموظف في مكتب فاخر، لهذا يرجو ترك الفلاحة والزراعة. حتى ابنتي تحلم بدورها بالعمل معهم، لهذا بدأت منذ الآن بالامتعاض من إحضار الحشيش للبقرة وحلبها.

- هل تصدقهم أنت؟!.

سأله أبو عبد الله مستنكراً، وهو ينظر مباشرة إلى عينيه الصغيرتين، كأنه يخشى على صاحبه من الوقوع في مهاوي الطمع. ولكن رفيق عمره لم يخيب أمله، واكتفى بهز رأسه أن لا، فقد شعر بشيء يطبق على صدره بشدة، ولم يعد قادراً على الكلام بسهولة. عندئذ أردف أبو عبد الله بعد مدة من الصمت:

- لا علاقة لهم معنا. إننا لا نريد العمل لديهم ولا نريد معونتهم.

تكلم أبو محمود بجهد بالغ وهو يسحب الهواء إلى صدره بصعوبة:

- أنا متأكد من أن أبناءنا سيعملون خدّاماً لديهم، وبناتنا..

لم يستطع إكمال كلامه، فأشاح بوجهه وهو يمسح دمعة صغيرة تاهت بين تجاعيد وجهه المتغضن الذي لوحت الشمس أديمه منذ طفولته.

لم ينتبه أبو عبد الله إلى التغيرات التي طرأت على الرجل الذي لم يبتعد عنه يوماً واحداً، فقد كانت مصيبته أكبر مما يحتمل، لهذا تحامل على نفسه ووقف على قدمين بالكاد تحملان جسده النحيل، وأردف بصوت مبحوح:

- أريد العودة إلى البيت، هل تأتي معي؟.

- سأجلس بمفردي قليلاً.

أجابه أبو محمود وقد زاد انحناء قامته.

ابتسم أبو عبد الله بحزن لأنه لم يدر ما يتوجب قوله ليواسي صديقه، وليواسي نفسه أيضاً. ثم شرع

يسير الهوينى بخطوات متقاربة نحو درب القرية المترب، وهو يستند على عكازه الخشبي الذي كان فيما مضى غصناً مورقاً في شجرة خضراء، وقد سبقه ظل قامته الطويلة الذي يتقاطع بين حين وآخر مع ظلال بقايا الأعمدة الضخمة، من دون أن يخطر في باله أنه لن يتبادل الحديث مع جاره الذي لن يقوم بمفرده عن العمود العملاق حيث يسند ظهره منذ شروق الشمس.

انتظار في الفناء

(1)

بقعة صغيرة على طرف المدينة الكبيرة، شُيِّد عليها في زمن سالف بناء من طابقين ما يزال محتفظاً بشيء من مظاهر الترف، بابه الخشبي مغلق بإحكام، ونوافذه الزجاجية المزخرفة عليها ستائر سميكة، وثمة فناء مسور بجدار مرتفع يفصل البناء عما حوله رغم وجود باب حديدي كبير يفضي إلى شارع طويل تختفي أصوله في مساحات جرداء تدل على انحباس المطر لسنوات طويلة.

- انتظرنا طويلا.

قـال الرجـل النحيـل بـضجر وهـو يطـوح بقدميـه في الفـراغ حيـث يجلـس علـى إفريـز تهـدم بعـضه، فحدجـه الرجل الضخم باحتقار، وقال كأنه يحدث نفسه:

- لا بد من الانتظار.. هذا واجبنا.

- ليس بعد الضيق إلا الفرج.

قال الرجل العجوز، مقـرّاً بحقيقـة يعتقـد أنهـا خـارج دوائـر النقـاش. وأيـده الرجـل البـدين الـذي يـشاركه في المقعد الخشبي الوحيد في الفنـاء الـشبيه بحديقـة منزليـة مهملة، وقال:

- أجل.. لم يبق إلا القليل.

- ما أدراك أنه لم يبق إلا القليل؟.

سـأل الرجـل الـذي يقـرأ في الجريـدة بنـبرة سـاخرة، فشعر البـدين بـالحرج، ووجـد أنـه ينبغـي قـول شـيء مـا، ولكـن البداهــة لم تـسعفه، فعمــد إلى نــزع الربطــة الحريرية عن رقبته المتهدلة ثم رماها بعيداً بلا مبالاة.

- هل لديكم اعتراض على أن ننتظر؟!.

قـال الرجـل الـضخم باسـتهتار، ولم يجـد أي مـن الرجـال أنـه معـني بالـسؤال، أو مـضطر للإجابـة عليـه،

وانشغل كل منهم بأفكاره الخاصة، أو الاستسلام للاسترخاء والكسل.

- اللهم اجعل في انتظارنا فرجاً قريباً.

قال العجوز باطمئنان. وهز القصير رأسه الأصلع، وتكلم لمجرد المشاركة:

- ادعُ لنا أيها الفاضل.

ابتسم العجوز عن بقايا أسنان منخورة، وتحدث عن الصبر وثوابه، ولم يأبه أحد لحديثه المسهب، حتى الرجل القصير الذي كان يستمع إليه باهتمام تثاءب بكسل، واستلقى على تراب قاس يكسوه القليل من الأعشاب الجافة في ظل الشجرة الوحيدة.

(2)

قطع الصمت صاحب الجريدة وهو يلوح بها أمام وجهه باحثاً عن نسمة لطيفة دون جدوى، فالشمس تربعت في قبة السماء، ولم تُعْفِ البناء الذي تسلخت طبقات الطلاء عن جدرانه من بعض سعيرها.

- لماذا أتوا به إلى هنا، ألم يكن من الأجدر نقله إلى المستشفى المركزي؟.

تبادل الرجال النظرات بحيرة، وكأن هذا السؤال المفاجئ لم يخطر في بالهم من قبل، رغم وجود أكثر من سبب لاستدعائه. وتوجس الضخم شرا، وتأهب لخوض معركة ضارية، كحيوان مفترس يتوثب للانقضاض على فريسة سادرة في لهوها.

- ربما تبدو مجرد عيادة صغيرة، ولكنها أهم من مستشفيات المدينة، ففيها أحدث الأجهزة الطبية في العالم، وكبار رجال البلد يعالجون هنا تحت إشراف طبيب مشهور اختص بالجراحة الدقيقة من دولة أجنبية.

قال البدين بروية، وتحدث عن معجزات طبية حدثت في هذا المكان الذي لا يعرفه إلا قلة من الناس. واستمع العجوز إلى ما قيل باهتمام، وقال برجاء صادق:

- أيها الشافي المعافي أغثنا برحمتك.

(3)

كـان الرجـال يثرثـرون بـتحفظ، فالثقـة مفقـودة بيـنهم. وحـدثهم النحيـل عـن النـساء اللـواتي وقعـن في غرامـه، وضـحكوا كـثيرا دونمـا إحـساس حقيقـي بـالفرح، وانقلب الأمـر رأسـا علـى عقب عنـدما صـدمهم صاحب الجريدة بقوله:

- مكان بهذه الأهمية دون حراسة!.

قهقه الرجل الضخم مكشراً عن نواجذه، وأخرج مسدساً من بين ملابسه، وهـزه بيده العارية فتقلصت عضلات الذراع، ثم قال بغرور:

- لا داع للحراس.. كلنا هنا حراس أكفاء.

لم يرغـب أي مـنهم في تأييـد قـول الـضخم أو إنكاره، وساد هدوء مريب شتته شخير الرجل القصير الذي وضع حذاءه تحت رأسه وغط في نوم عميق.

(4)

استأنف النحيل الكلام بعدما فرغ من التبول في إحدى زوايا الفناء:

- يقولون إن من أطلق عليه النار أحد حراسه المقربين.

أحس الضخم بأن الفوضى تهدد الجميع، وأن الجنون لا يستثني أيّ بشري على وجه الأرض، فقال بحزم:

- كذب.. أين هذا الرجل؟.
- يبدو أنه رحل منذ مدة.

قال النحيل وهو يجيل بصره بين الرجال. وصاح به الضخم بغضب:

- كلا.. ليس بيننا رجل غريب!.

وأردف بحنق:

- لو كان بيننا رجل غريب.. فمن سمح له بالمغادرة؟!.

- لم يكن الرجل الوحيد الذي ذهب وتركنا بمفردنا.

وقال العجوز قاطعاً جدل الرجلين:

- لكل منا عذره.

وتنهد بعمق، ثم أضاف:

- الأمور لا تسير كما نشتهي.

ثم استغرق في تأمل غيمة بيضاء تعبر سريعا سماء توهجت بحمرة دامية. وعم هدوء يشتته ضجيج العالم الخارجي الآتي من جهة الشارع المزدحم بالسيارات المسرعة والشاحنات الكبيرة.

(5)

وضع الرجل البدين يده ذات الأصابع القصيرة على بطنه المترهل، وقال:

- أنتم جائعون بلا شك؟.

هز القصير رأسه موافقاً دون الجرأة على المطالبة بشيء، وقال صاحب الجريدة وهو يجلس على حافة بركة فارغة من الماء:

- نحتاج إلى القليل من الطعام حتى نقوى على البقاء.

- من يحضر الطعام؟.

سأل الضخم بصوته الأجش، ووجد البدين نفسه مجبراً على التطوع، فقال وهو يشير بيديه إلى ما خلف السور:

- هناك استراحة للمسافرين قريبة من هنا.

لم يعترض الضخم على الاقتراح، وعد الجميع هذه موافقة ضمنية لا لبس فيها. وما كاد البدين يخرج حتى بدأ الرجال يتهامسون فيما بينهم عن إمكانية فراره، فلم يرغبوا أن يسمعهم الضخم الذي وقف كتمثال قد من الحجر بجانب الباب الحديدي الصدئ المفتوح للريح والغبار.

(6)

فرغ الرجال من التهام الطعام بشراهة عقب الجوع، واخذوا يشربون العصائر بتلذذ وهم يتجاذبون أطراف الحديث لتزجية الوقت لا أكثر. وقذف البدين ضجراً بزجاجة عصير أفرغها في جوفه فسقطت وتكسرت

على أحجار رصفت فيها أرضية الفناء. وكان الضخم يراقبه باستخفاف وهو ينكش بعود يابس بقايا شرائح اللحم المشوي من بين أسنانه الصلبة.

- لكل شيء أوان.

قال العجوز وهو يتأمل أوراقاً صفراء تهوي للأسفل من أغصان الشجرة الضامرة، وتساءل النحيل:

- لنفترض فشل العملية، و..

- اخرس.

صاح الضخم آمراً، وكأنه يقوم بواجب لا تفريط فيه، ثم بصق، وتجشأ.

- لِنَدْعُ اللّه أن يشفي الأحبة.

قال العجوز وهو يرفع يديه للسماء، ورمق النجوم التي تزين السواد الدامس. ولم يشاركه أحد الدعاء.

- لا عمل لي هنا، سأعود فيما بعد.

قال النحيل وهو ينفض الغبار عن سرواله ويصلح ملابسه، فامسكه الضخم من ياقة قميصه، وصاح بوجهه مطلقاً سيلاً من رذاذ لعابه:

- لن يذهب أي منكم من هنا.

- دعني وشأني.

قال النحيل بتحد ، وأدار ظهره للآخرين وهو يلوّح بيده مودعاً ، وما كاد يسير بضع خطوات نحو باب الفناء حتى دوى طلقٌ ناري، وسقط النحيل على الأرض.. اختلج جسده، ثم همد تماماً.

هب القصير من نومه مذعوراً ، وأخذ يحدق بخوف بالضخم وهو يجر القتيل من قدميه، ثم وهو يحشره في برميل عتيق، دون أن يعترض أي منهم على ما جرى، وكأن ما حدث أمر لا بد منه. ولم يجرؤ على فتح فمه غير العجوز الذي تمتم بصوت خافت بكلمات مبهمة وهو يعبث بمسبحته التي برز صوت طقطقات حباتها بوضوح.

(7)

رفع البدين قدميه عن الأرض، وقال بعجب:

- صراصير.. صراصير تخرج من تحت الباب.

أسرع الرجل الضخم بهرسها وهو يتلفظ بشتائم مقذعة. وطاف بصر العجوز ببقايا الحشرات المبعثرة على الأرض، وقال بقرف:

- شيء مقزز.

- هل أدعها لتقاسمنا هذا المكان اللعين؟!.

قال الضخم حانقاً وهو يتابع دوس الحشرات السوداء بحذائه الثقيل.

- أمر غريب أن تخرج كل هذه الصراصير من هناك!.

قال البدين وهو يشير بيد مرتجفة إلى الباب الموصد. وكتم القصير ضحكة في غير أوانها. وتساءل صاحب الجريدة باستغراب:

- لماذا لم يخرج الطبيب إلينا ليطمئننا عن صحته؟!

لم يستطع أحد تخمين إجابة مرضية، فلاذوا بالصمت، وخيمت عليهم الريبة بظلها الأسود المقيت، وأحسوا بأن كارثة تتربص بهم، وأن الأمر مرهون بالوقت لا غير.

(8)

- سأقرع الباب.

قال صاحب الجريدة وهو يقف على كومة من الأحجار، وكأنه يهمّ بقذف نفسه في لجة المحيط دون

التفكير بالعاقبة. وزحف القصير بإذعان إلى الخلف حتى التصق بسور الفناء. وحدق الضخم بعينين حمراوين وقد هاله ما سمع. وتنبه البدين إلى خطورة ما يحدث. وقال العجوز بإشفاق:

- أخشى القيام بعمل يزيد الأمر سوءاً.
- ليس هناك أسوأ مما نحن فيه.

قال البدين بضجر، مؤيداً بطريقة مواربة الاقتراح غير المتوقع، وتبادل الرجال نظرات الحيرة، وأنشبت الشكوك مخالبها البغيضة في صدور لم تعد تقوى على تحمل المزيد من الانتظار، وتحسس الضخم بوادر تمرد يجهل عواقبه، فسأل صاحب الجريدة بلهجة متوعدة:

- هل تتحمل تبعة ما تزعم؟.
- أجل.

أجاب ببساطة لا تخلو من تحد، وسار نحو الباب وقد تعلقت به القلوب برجاء يشوبه الخوف، وقرع الباب برقة، وانتظر لمدة قصيرة، ثم عاد إلى قرع الباب بقوة لمرات عدة، وعندما يئس من خروج الطبيب فتح الباب بحذر، ثم تراجع خطوات إلى الخلف وهو يطوح بيديه أمام وجهه:

- أف.. رائحة قذرة في الداخل!.

تحلق الرجال قرب الباب وهم ينكرون ما سمعوا، وحدقوا في داخل الحجرة، ولكنهم لم يتبينوا شيئاً، فالستائر الداكنة مسدلة على النافذة الوحيدة في الحجرة، وضوء شمس الفجر الذي تسرب من الباب لم يبدد الظلام.

نادى البدين الطبيب دون أن يجرؤ على الدخول، ولكن الطبيب لم يجب كما أمل الجميع. وشعر الضخم بالخذلان، فالتقط مسدسه بيد فقدت ثباتها، ودخل باحثاً في الحجرات الداخلية، وسرعان ما جأر كحيوان جريح، وصرخ بذهول:

- أين ذهبوا به؟ هل اختطفوه؟ أيجرؤ الطبيب على خداعنا؟!.

وبقيت الأسئلة معلقة في الفراغ دون جواب.

اقتحم الرجال المكان، ثم تسمروا بجوار طاولة العمليات الملوثة بدماء متخثرة، حيث بقايا جثة تنهشها القوارض بنهم دون أن تعبأ بما يجري حولها. ولم يقوَ أي منهم على التساؤل إذا كانت هذه نهاية المُصاب الذي انتظروا عودته بلهفة لينقذهم مما هم فيه!.

المؤلف في سطور

سامر أنور الشمالي

- كاتب سوري من مدينة حمص.
- مواليد 1971.
- عضو اتحاد الكتاب العرب- عضو جمعية النقد الأدبي.
- كتب في مجال: الرواية، القصة القصيرة، المسرح، أدب الأطفال، النقد الأدبي، المقال الصحفي.
- نشر نتاجه في المجلات والصحف الأدبية والثقافية المحلية والعربية منذ مطلع التسعينيات.
- قام بإعداد وتقديم كتب عدة.
- من الجوائز الأدبية التي نالها:
  - جائزة (نبيل طعمة للإبداع) المرتبة الأولى- الدورة الأولى- سوريا 2008
  - جائزة (يوسف إدريس للقصة القصيرة) مرتبة واحدة- الدورة الثالثة- مصر 2009
- مؤلفاته المطبوعة:

1) في البحث عن الضياء- قصص قصيرة- دار التوحيدي حمص 2001
2) تصفيق حتى الموت- قصص قصيرة- دار التوحيدي حمص 2001
3) الكاتب الصغير- قصص للأطفال- دار الإرشاد حمص 2004

4) كوكب النباتات المضيئة- قصص للأطفال- دار الإرشاد حمص 2006
5) كنوز المملكة الذهبية- قصص للأطفال- اتحاد الكتاب العرب حمص 2006
6) سيرة ذاتية للجميع- رواية- مكتبة الشمالي حمص 2006
7) ماء ودماء- قصص قصيرة- اتحاد الكتاب العرب دمشق 2006
8) كل الحكايات في قصة واحدة- قصص للأطفال- اتحاد الكتاب العرب دمشق 2007
9) الساعة الآن- قصص قصيرة- اتحاد الكتاب العرب دمشق2008
10) ألوان من الخيال- قصص للأطفال- وزارة الثقافة دمشق 2009
11) الزاوية والمحور- نقد أدبي- اتحاد الكتاب العرب دمشق 2010
12) أجمل هدية- قصص للأطفال- وزارة الثقافة دمشق 2011
13) وجوه ومواجهات- نقد أدبي- اتحاد الكتاب العرب دمشق 2011
14) كمبيوتر في كوخ الأشباح- قصة للأطفال- دار أصالة بيروت 2014
15) الهدف الأجمل- قصص للأطفال- وزارة الثقافة دمشق 2014
16) سيكون في جديد الزمان- قصص قصيرة- اتحاد الكتاب العرب دمشق 2014

الفهرس